الحديث الحادى والعشرون

عن أبى عمرو وقيل : أبى عمرة سفيان بن عبد اللّه رضى اللّه عنه قال : قلت: يا رسول اللّه ، قل لى فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا غيرك ، قال : « **قل : آمنت باللّه ثم استقم** » رواه مسلم .

تخريج الحديث :

هو سفيان بن عبد اللّه الثقفى من الطائف ، له صحبة مع رسول اللّه ﷺ ، وكان عاملا لعمر بن الخطاب على الطائف ، وقد روى هذا الحديث عن سفيان بن عبد اللّه من وجوه عدة وبزيادات أخرى ، فخرّجه الإمام أحمد والترمذى وابن ماجه من رواية الزهرى عن محمد بن عبد الرحمن بن ماعز ، وعند الترمذى من رواية عبد الرحمن بن ماعز عن سفيان بن عبد اللّه قال :

يا رسول اللّه ، ما أخوف ما تخاف علىّ ؟ فأخذ بلسان نفسه ثم قال :« هذا » .

وقال الترمذى :حسن صحيح . وخرجه الإمام أحمد والنسائى من رواية عبد اللّه ابن سفيان الثقفى عن أبيه ؛ أن رجلا قال : يا رسول اللّه ، مرنى بأمر فى الإسلام ولا أسأل عنه أحدًا بعدك ، قال : « قل : آمنت بالله ثم استقم » قلت : فما أتقى ؟ فأومأ إلى لسانه .

سبب ورود الحديث :

فى الحقيقة لا توجد واقعة معينة لورود هذا الحديث النبوى الشريف ، ولكن

قل لى فى الإسلام : المراد بالإسلام هنا دين اللّه الشامل للعقيدة والشريعة .

قولا : بالتنوين للتعظيم والتفخيم أى جامعا لمعانى الدين .

لا أسأل عنه أى واضحا وشاملا بحيث لا يحوجنى إلى أن أسأل مستفسرا عنه مرة أخرى أو من مصدر آخر .

قال : له النبى ﷺ .

قل آمنت باللّه : أى أقررت بوحدانيته فى ذاته ، وصفاته ، وأفعاله ، وأنه منزه عن النقائص ــ عز وجل .

ثم استقم : فى أقوالك وأفعالك ونياتك وفق ما جاءت به الشريعة .

استقم : الاستقامة ضد الاعوجاج ، وهى لغة : الاستواء فى جهة الانتصاب ، وشرعا : هى اتباع الحق والقيام بالعدل ، ولزوم المنهج القويم .

وقوعه فى صيغة إجابة صريحة من النبىّ ﷺ على سؤال أبى عمرو سفيان بن عبد الله تكشف لنا تطلع الصحابة ــ رضوان الله عليهم ــ إلى معرفة دينهم ، وحرصهم الشديد على تفهّمه من مصدره الأساسى المبلغ عن الله ــ عز وجل .

وربما استثقل الصحابة أنفسهم ــ من فرط أدبهم ــ وتحاشوا أن يكونوا مصدر إرهاق للنبى ﷺ، فتربصوا فى كثير من الأحيان مقدم أعرابى استنفدت شمس البادية بعض ماء وجهه، ولم تصقل آداب الإسلام بعد طبائعه، فيهتبل فرصة طلاقة وجه المصطفى ﷺ ويمطره بوابل من الأسئلة، وها هو أبو عمرو يثلج الصدور ويلقى بسؤاله الوجيه على رسول الله ﷺ، وها هى إجابة النبى تأتى وفق طلب السائل شافية كافية.

دروس وعبر من كلام سيد البشر

العقائدية :

١ ــ لقد استفسر الصحابى الجليل أبو عمرو سفيان بن عبد الله عن الإسلام فقال: يا رسول الله ، قل لى فى الإسلام قولا ، لكننا نجد أن الرسول ﷺ يجيبه: «قل : آمنت بالله » .

ومن هنا ، فقد يتبادر إلى الذهن أن الإسلام والإيمان لفظان مترادفان لمعنى واحد، ولبيان علاقة كل منهما بالآخر يجب استعراض مفاهيمهما وآراء العلماء فى ذلك :

الإيمان فى اللغة : مطلق التصديق وجاء بمعناه اللغوى هذا فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ [يوسف : ١٧] .

وشرعا : هو تصديق نبينا محمد ﷺ بالقلب فى جميع ما علم مجيئه به من الدين بالضرورة .

وأما الإسلام فهو لغة : الخضوع والانقياد ، ومن هنا فهو غير الإيمان فى اللغة قطعا .

وشرعا : ذهبت فى تعريفه المذاهب الكلامية إلى مذهبين :

المذهب الأول : وهو أكثر الماتريدية وبعض محقّقى الأشاعرة إلى أنه الخضوع والانقياد للأوامر والنواهى ، وعلى هذا ، فالإيمان والإسلام مترادفان شرعا .

والمذهب الثانى : وهم أكثر الأشاعرة مع كثير من الماتريدية يرى تغايرهما مفهوما ولغة ، إذ مفهوم الإسلام هو امتثال الأوامر والنواهى فحسب .

ولفظ الإسلام ورد فى القرآن الكريم بمعانى عدة ، ولكنه فى كثير من الأحيان جاء

شاملاً للدين كله مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلَامُ ﴾ [آل عمران : ١٩] ، وكما ورد فى هذا الحديث أيضا .

٢ ــ الإيمان الصحيح يقتضى الاستقامة فى توحيد اللّه ، والالتجاء إليه وحده واعتقاد النفع والضر فيه ، وعدم الإشراك به فى ذاته أو فى صفاته أو أفعاله ــ عز وجلّ ــ لأنه ما استقام قط منْ هرع إلى ذى قبّة أو صاحب ضريح يتمرّغ على عتباته يترجّى عطاءه ويعوذ به من اليأس والضر ثم هو يتلوا فى كل ركعة يركعها للّه ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] إن هو إلا كاليهود الذين ضلوا عن الاستقامة بادعاتهم أن عزيرًا ابن اللّه، أو كالنصارى الذين قالوا: إن المسيح ابن اللّه ــ تعالى الله علوّا كبيرا.

الأصولية :

كان بإمكان هذا الصّحابى السائل رضى اللّه عنه أن يتعرف على الإسلام من خلال نظرة تمعّن وتدبّر فى كتاب اللّه ــ عز وجلّ ــ ولكنه أبى إلا أن يسأل الرسول ﷺ نفسه للدلالة على أن فهم القرآن الكريم إنما يتوقف على السنة الشريفة قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل : ٤٤] إذ هى المفصّلة لما أجمله ، المقيّدة لما أطلقه ، المخصصة لما أعمّه فى كثير من الأحكام ، ففى الصلاة مثلا قال تعالى : ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ ففصّلت السنة كل شىء عن الصلاة ، وفى الزكاة قال تعالى : ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ [المزمل : ٢٠] .

ولما كانت جل الأحكام الشرعية قد ثبتت بالسنة ووردت تفاصيلها فى خبر الآحاد أضحت السنة النبوية الشريفة جديرة بأن تكون المصدر الثانى من مصادر التشريع الإسلامى الأساسية .

الأخلاقية :

من إكبار أولى الجاه وذوى المكانة العالية نداؤهم بكناهم المحبّبة إليهم ، وعدم مناداتهم بأسمائهم الشخصية؛ لأنه من الجفاء، ولا أحد يستحق منا الإجلال والتقدير أكثر من رسول اللّه ﷺ؛ لذا أدبنا الحق سبحانه بقوله : ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]، واستمع الصحابة إلى هذا التأديب الربانى لهم فكانوا مثالا فى حبهم واحترامهم لرسول الله ﷺ ، فها هو سفيان : أبو عمرو ــ راوى هذا الحديث ــ يناديه بأدب : يا رسول الله ، قل لى فى الإسلام قولا . . . وها هم الصحابة ــ رضوان الله عليهم ــ يتسابقون إلى فضلات وضوئه ، أو بصاقه يمسحون به وجوههم تبركا بالمصطفى ﷺ .

بيد أن بعض الأعراب الوافدين على المدينة لا يجد أحدهم غضاضة فى رفع صوته ونداء النبى باسمه مجردا : يا محمد .

وهذه خلة لا يحمدها أولى النهى فضلا عن الشارع الحكيم .

الفكرية :

إن الانحراف عن الشريعة الإسلامية انحراف عن الطبيعة البشرية نفسها ، وانتقال بها من الإنسانية المكرمّة إلى الحيوانية المهينة ، وهو انحراف أيضا عن الفطرة السليمة التى فطراللّه الناس عليها، فمن الفطرة القويمة الحياء ، ومنها الاعتراف بالجميل ، وشكر أهله، وتوحيد خالق الكون ومنها . . . ومنها . . . ومن ثم يصبح الإنسان غير مستقيم لا فى أخلاقه ولا فى معاملاته لأفراد مجتمعه ، ولا فى عباداته نفسها .

والاعوجاج لا تولده الاستقامة مطلقا ، بل تتوالد الأجناس من بعضها .

إذًا فكل اعوجاج فى السلوك لا يمليه إلا فكر معوج ، ومنهج غير مستقيم ، ولا أظن أن منهجا متكاملا مستقيما غير ذى عوج سوى القرآن الكريم دستور الإسلام الشامل لشتى نواحى الحياة، قال تعالى : ﴿ **فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِير** ﴾ [هود : ١١٢] .

فما من أرواح تزهق ، وأموال تنهب ، وأعراض تنتهك ، ودماء تسفك ، وما من تعسف وإرهاب وتقتيل وتشريد وظلم وإبادة وطغيان إلا لاعوجاج المناهج الفكرية المتبعة، سواء كانت فلسفة داروينية ، أو وجودية أو فرويدية ، أو رأسمالية أو شيوعية، قال تعالى : ﴿ **فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ** ﴾ [الشورى: ١٥]، وقال أيضا : ﴿ **قُرْآنًا عَرَبِيًا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ** ﴾ [الزمر : ٢٨] .

إذن فسلامة التفكير تكمن فى اتباع المنهج الربانى الذى تسامى عن الأهواء والضلالات ، وما تولدّ عنها من تيّارات وفلسفات أرضية .

السياسية :

الصحابى الجليل زيادة على طلبه إجابة شافية ، وقولة وافية لا يعوز بعدها الاستزادة، أو الاستفسار من أى كان ــ غير مسؤوله عليه الصلاة والسلام ــ فوق ذلك يضمّن قولته عدم الالتجاء إلى غير اللّه ورسوله فى أمرى الدنيا والآخرة ؛ لأن الحق سبحانه أقسم بنفسه أنه لا إيمان أبدا لمن لا يلتجئ فى مشاكله ومشاجراته وأحكامه إلى سُنّة الرسول ﷺ، ثم لايجد فى نفسه أدنى تبرّم أو تململ ، قال تعالى: ﴿ **فَلَا وَرَبِّكَ**

لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء : ٦٥] .

فقه الدعوة

من فقه الدعوة فى سبيل اللّه أن يتجنّب الداعية الإطناب المملّ فى خطبه ومواعظه، ولعل الحكمة الشرعية حين اقتضت خطبتين فى كل جمعة دون سائر الأيام أرادت أن ترشد الدعاة إلى عامل نفسانى هام ألا وهو جذب النفوس ، وشد الأذهان .

وكثرة الكلام والأخذ والرد تجعل الحديث عقيما ممّا يستعصى على الأذهان فهمه فتشرد ، وتتملّص النفوس من قيد الإطناب الذى قيد حريتها وتحوّل إلى ركاكة مملة .

وها نحن نجد الإمام عبد اللّه بن مسعود رضى اللّه عنه يتحيّن الفرص ويجلس للناس كل خميس فحسب مراعاة منه رضى اللّه عنه لهذا الجانب الخطير .

وليس الأمر عند هذا الحد فحسب ، بل يتعدّاه إلى الصلاة نفسها ، فلقد كان ﷺ يخفّف صلاته إن سمع بكاء الصّبية حتى لا تتشتت أذهان الأمهات فينصرفن عن الحال الذى هم فيه من خشوع إلى حنان الأمهات .

وها هو نفسه ﷺ يعاتب معاذا حينما شكى به إليه أنه يطوّل فى صلاته بالناس، ويقرعه بقوله مستنكرا : « أفتّانٌ أنت يا معاذ ؟! » .

ولكن الدعوة الإسلامية اليوم ابتليت بأناس لا يعرفون من الإسلام إلا اسمه ، ولا من القرآن إلا رسمه ، ويجلسون المجالس المملة المخلة ، ويحتكرون القول ، فتراهم يلوكون عبارات مستهجنة، وبأساليب مثقلة، ولعلهم هم الذين عناهم النبى ﷺ بقوله: «المتفيهقون» وينفض المجلس فتنفض معهم شقشقتهم ورحم اللّه الأول حيث قالوا: أسمع جعجعة ولا أرى طِحنًا .

تطبيق

١ ــ كيفية الاستقامة فى الاعتقاد والمعاملات والعبادات ليست مطلقة هكذا ، أوحسب ما تمليه الأهواء وتقتضيه الحاجات ، وليست متروكة لاجتهاد أو فكر وتخمين مطلقا ، بل هى مبينة فى كتاب اللّه، قال سبحانه لنبيّه ومن خلاله لعباده المؤمنين :

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [هود : ١١٢] .

إذًا كما أمرت ، وإلا بأن توقّف الأمر على الاستقامة ، فإن الملحد يدّعى أنه مستقيما وفق القوانين والسلوكيات العامّة ، والجاهلى المتنكّب لسبيل اللّه يؤكدّ على

استقامته تبعا لأعراف قومه وتقاليدهم الموروثة .

والمشعوذ يدعى استقامته وفق طريقته وما رسمه آباؤه الأولون ، بل ويذهب إلى أبعد من هذا فيؤوّل قول اللّه تعالى: ﴿ **وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا** ﴾ [الجن : ١٦] :أن المراد طريقته واحتار الأتباع المريدون أى طريقة هذه ؛ أهى الطريقة القادرية ؟ أم الشاذلية ؟ أم الرحمانية ؟ أم العلاوية ؟ أم الهبرية ؟ أم ، أم ،واحتار المسلمون أى إسلام يراد منهم اليوم : الأمريكى ؟ أم العربى التقدمى ؟ أم الاشتراكى ؟

ونداء الرحمن يدوّى فى الآفاق : ﴿ **وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ** ﴾ [الأنعام : ١٥٣] .

٢ ــ قد يستند البعض على قولة الصحابى سفيان : قل لى فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا غيرك ، أن الشريعة الإسلامية لا تؤخذ إلا من الكتاب والسنة مباشرة ، والحقيقة أنها قولة حق لكن أريد بها منكر عظيم ، ونكاية بالإسلام خطيرة ، إذ الصحابى لم يقل : لا أبحث فى فهم ما تقول لى ولا أسأل فى بيانه أحدا غيرك ، ثم إن هذا الصحابى متمكن من أخذ الإسلام من معينه الأصلى .

لذا فإن أخذ الإسلام من أفواه الرجال ــ والذين لا نأتى لنا فهمه إلا بهم ــ لأن باعهم فى اللغة العربية وعلومها أوسع ، وفقههم لأصول الشريعة الإسلامية أدق وأعمق ــ ليس عيبًا فى عقيدة المؤمن أبدا ولا ينتقص من إسلامه قط ، بل العكس هو الأقرب إلى الصحة ؛ لأنه لا سنة بلا فقه ، ولقد جر ادّعاء بعض المسلمين اليوم أننا فى غنى عن جهود الإمام البخارى وتصانيفه وأسفاره وبحره العميق الذى لا يجاريه فيه أحد، وعن جهود الإمام مسلم وأهل السنن والمسانيد ، واجتهادات إمام دار الهجرة مالك بن أنس ، والجهبذ الشافعى ، وإمام السنة أحمد بن حنبل وأبى حنيفة ، و . . . و . . . . و . . . و . . . إلى نهاية هذه السلسلة الذهبية ــ والتى نأمل ألا تنقطع ــ وهى التى ألمعت بسناها تاريخنا المجيد، وأغنت تراثنا العريق . قلت : لقد جرّ لنا ما يثلج الصدور ، صدور الأعداء المتربصين بهذه الأمة ، ويقرّ أعينهم ، ويفرحهم بحيث تنكرّ الأحفاد للآباء ، وتنمّر التلاميذ لأساتذتهم ومربّيهم ، وتنكروا لجهادهم المرير فى الرباط على هذه الشريعة الإسلامية أمام تحريف المبطلين وتزييف الحاقدين عبر العصور وأصبحت الطائفة المتنكّرة تمثل مذهبا جديدا له أتباعه ومؤيّدوه ، ومن ثم احتدم النزاع وقوى الشنآن ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العظيم .

الحديث الثانى والعشرون

عن أبى عبد اللّه جابر بن عبد اللّه الأنصارى ــ رضى اللّه عنهما ــ أن رجلا سأل النبىّ ﷺ فقال له :

أرأيت إذا صليت المكتوبات ، وصمت رمضان، وأحللت الحلال ، وحرمت الحرام ، ولم أزد على ذلك شيئاً أأدخل الجنة ؟ قال : « نعم » : ومعنى حرمت الحرام : اجتنبته ، ومعنى أحللت الحلال: فعلته معتقدا حله. رواه مسلم فى كتاب الإيمان .

ترجمة الراوى :

شهد جابر بيعة العقبة الثانية مع أبيه عبداللّه الأنصارى ــ رضى اللّه عنهما ــ وكان عبد اللّه من النقباء الاثنى عشر ، واستشهد يوم أحد، قال جابر رضى اللّه عنه : لقينى رسول اللّه ﷺ بعد موت أبى بأيّام، فقال لى: «أى بنى ، ألا أبشرك ؟ إن اللّه ــ عز وجل ــ أحيا أباك فقال له : تمن ؛ فقال : أتمنّى يا رب أن أردّ إلى الدنيا حتى أقتل مرة أخرى ، قال : إنى قضيت أنهم إليها لا يرجعون » .

ويعد جابر رضى اللّه عنه من المكثرين فى رواية الحديث إذ روى له ألف وخمسمائة وأربعون حديثا ، وكان آخر الصحابة موتا بالمدينة المنوّرة عن عمر يناهز الأربع والتّسعين سنة .

سبب ورود الحديث :

لعلّ النعمان بن قَوْقَل ــ بفتح القافين وسكون الواو ــ هذا الذى قدم على النبىّ

أن رجلا : الرجل هو النعمان بن قوقل ــ بفتح القافين .
فقال له أرأيت : أخبرنى إن فعلت كذا وكذا أادخل الجنة .
المكتوبات : المفروضات .
أحللت الحلال : أى فعلته معتقدا حله .
حرمت الحرام : أى معتقدا حرمته .
ولم أزد على ذلك : أى أتيت بما تقدم مقتصرا عليه دون تطوع .
قال : أى النبى ﷺ .
نعم : أى تدخل الجنة باقتصارك على ذلك .

ﷺ مستفسرا ، استكثر النوافل وتداخلت عليه السنن والفضائل ، فأراد أن يحسم الأمر ويبحث عن الشروط الأساسية التى يتوقّف عليها دخوله الجنة قبل أن يعرف الأعمال التطوعية التى ترقى بداخل الجنّة إلى الدرجات العلا .

والنّعمان هذا شهد بدرا الكبرى ، وحاز فضل الشهادة فى أحد وهو القائل يومها: أقسمت عليك ربّ العزة لا تغيب الشمس حتى أطأ بعرجتى خضر الجنة ، قال النبىّ ﷺ: « إن النعمان ظن باللّه ــ عز وجل ــ خيرا فوجده عند ظنه ، فلقد رأيته يطأ فى خضرها ما به عرج » .

دروس وعبر من كلام سيد البشر

الفقهية :

١ ــ إن ترك النوافل فى الصلاة والصيام جائز ولا يعاقب صاحبه ولا يخلّ بإيمانه، هذا إن لم يقصد صاحبه الاستخفاف .

٢ ــ لا يجوز لمن عليه فوائت أن ينشغل عنها بالنوافل بل يحرم عليه ذلك، ويجب عليه المبادرة بقضاء الصلوات الفائتة، اللهم إلا السنن كالوتر، والعيدين، وكذلك تحية المسجد، وركعتى الشفع والفجر، ومثل ذلك ما يرتبه الإنسان على نفسه من أوراد.

العقائدية :

أ ــ علم الغيب من خصائص المولى ــ عز وجل ــ فلا يعلمه إلا هو ، وما الرسول عليه الصلاة والسلام إلا مبلغا عن اللّه فى إجابته للسائل : أأدخل الجنة ؟! بـ«نعم !» قال تعالى : ﴿ **عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا . إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ** ﴾ [الجن : ٢٦ ، ٢٧] .

لأن اللّه حرم الجنّة على الكافرين كما حرّم الخلود فى النار على الموحدين وسنة اللّه وعدله يقتضيان ضمان الجنة للطائعين المخلصين ، وكل ذلك وفق مشيئته .

ب ــ من جادل وعاند فى حلّية حلال أحله اللّه ورسوله ، أو فى حرمة حرام ورد تحريمه فى آية محكمة أو سنة ثابتة فقد تحلل من ربقة الإيمان ــ والعياذ باللّه ــ وإن كان يحل ما أحل اللّه ويحرم ما حرّمه بحكم تربيته أو تبعًا لعاداته وتقاليده .

علم السلوك (التصوف السنى) :

أ ــ من شغلته الفضائل عن الفرائض فهو من المغرورين ، وأما من شغلته فرائضه عن الفضائل فهو من المقسطين .

ب ــ من الناس من يعبد اللّه خوفا من عقابه ، ومنهم من يعبده طمعا فى ثوابه ومنهم من يعبده حبًا فيه ، وتقربا إليه ولأنه أهل للعبادة والخضوع له .

وهذه درجة سامقة لا يرقاها إلا الأصفياء من عباد اللّه الذين زكت نفوسهم، وسمت أخلاقهم ، واستقامت سلوكهم .

القانونية :

١ ــ لا يفهم من قوله :حرمت الحرام : تشريعه من ذاتيته ابتداء وفق هواه أو مصالحه ، بل حرم الحرام الذى حرمه اللّه ونصت عليه الشريعة الإسلامية وأحل الحلال الذى أحله اللّه .

والويل كل الويل لمن نصب نفسه مشرعا ــ لا مبلّغا ــ فيسعى إلى تحريم ما تراه نفسه ويرجحه عقله حراما ، وتحليل ما يميل إليه فكره .

وهو بهذا قد ادّعى الألوهية ولو لم يصرح بذلك تصريح فرعون اللعين حين قال لقومه : ﴿ **مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى** ﴾ [غافر : ٢٩] ، ﴿ **قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُم** ﴾ [الشعراء: ٤٩] ، وكذلك قومه الذين ترسموا تعاليمه ، وانساقوا وراءه مؤلهون له وإن لم يبوؤوا بذلك صراحة !

٢ ــ رغم أن الحج والزكاة قاعدتان أساسيتان من قواعد الإسلام الخمس ، ومع ذلك لم يأت ذكرهما فى الحديث ، لا لأن الحج أو الزكاة لا يتوقف دخول الجنة عليها بالنسبة لغير المستطيع وغير مالك النصاب أبدا .

وحروب الردة التى خاضها الخليفة الأوّل أبو بكر الصديق دليل على ذلك .

بل لأن التشريع الإسلامى مبنىّ على الاستطاعة الجسيمة بحيث يراعى القدرات العضلية والنفسية ، وعلى الاستطاعة المادية ــ هذا بالنسبة للأوامر فقط .

فقه الدعـوة

من حسن التدبير فى أسلوب الدعوة إلى اللّه ألا يذهب الدّاعى إلى حد بعيد فى بيان الفضائل والمستحبّات بادئ ذى بدء ؛لئلا ينشغل بها بعض المدعوّين إلى الإسلام أو إلى تطبيقه عن الفرائض والأركان ، وحتى لا يتخوّف من كثرتها البعض الآخر فيعجز عن التمادى فى تطبيق الأحكام الشرعية الأخرى ، ولنا فى سيرة النبىّ ﷺ خير مثال حيث عكف طيلة إقامته بمكة المكرمة ــ ثلاث عشرة سنة ــ على تقويض صرح الشرك والإلحاد وإرساء قاعدة التوحيد ــ لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه ــ قبل أن يفرض عليهم الصيام أوالحج رغم قرب البيت الحرام إليهم .

تطبيـق

لقد جنى أدعياء الدعوة الإسلامية على دعوتهم من حيث يريدون الإحسان إليها فى كثير من الأحياء ، إنهم يرون ويكابدون ما تعانيه هذه الأمة المكلومة فى جسدها ، وسيوف أعدائها الحاقدين تثخنها وجروحها تنزف، بل تنهمر منها أنهار الدماء، وكرامتها تخدش كل حين وقدسها بل والكثير من أراضيها تجأر إلى الله من وطأة الاستعمار الحاقد، ولا زالت أقواتها وأقمشتها وأدويتها بيد أعدائها يساومونها فى أعزّ ما لديها ، فإذا حفظت ماء وجهها يومًا ودفعت أثمانا باهظة قالوا لها بشماتة : (الصيف ضيعت اللبن) ومع كل هذا نراهم يثيرون النقع فى نقاش حادّ رفع اليدين عند كل تكبيرة فى الصلاة. . . والقبض والسدل . . . وسمك اللحية . . . والكولونيا . . . !!

إنهم فى واد يـهيمون . . . وإن الأمة الإسلامية فى واد آخر .

obeikandl.com

الحديث الثالث والعشرون

عن أبى مالك الحارث بن عاصم الأشعرى رضى اللّه عنه قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم :

« **الطهور شطر الإيمان ، والحمد للّه تملأ الميزان، وسبحان اللّه والحمد للّه تملآن أو تملأ مابين السماء والأرض ، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك ، كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها** » رواه مسلم .

تخريج الحديث :

خرجه مسلم من رواية يحيى بن أبى كثير ؛ أن زيد بن سلام حدثه أن سلاما حدثه عن أبى مالك الأشعرى قال : قال رسول اللّه ﷺ ، فذكر الحديث .

ترجمة الراوى :

هو الحارث بن عاصم ، وعاصم هذا ليس صحابيا ، توفى الحارث فى طاعون عمواس سنة ثمان عشرة من الهجرة فى خلافة عمر رضى اللّه عنه .

دروس وعبر من كلام سيد البشر

العقائدية :

١ ــ إذا كان الإيمان الذى هو التصديق ينحصر فى شيئين أساسيين :

الطهور : (بفتح الطاء) ما يتطهر به ، وبضمها : بمعنى الطهارة وهو المراد هنا .

شطر : شطر الشىء نصفه .

الحمد للّه تملأ الميزان : أى أن ثواب حمد اللّه بأى صيغة ، أو ثواب هذه الصيغة من صيغ الحمد والثناء تملأ الميزان الذى توزن به الأعمال يوم القيامة .

وسبحان اللّه والحمد للّه : أى هاتان العبارتان تملآن ما بين السماء والأرض زيادة على ملء الميزان بالحمد منفردا، والميزان لاشك أوسع من طباق السماء والأرض .

أو تملأ ما بين السماء : « أو » هذه للشك فيما قاله النبى ﷺ وفائدتها الاحتياط فى النقل خوفا من الكذب على النبى ﷺ .

تملأ أو هذه العبارة المشتملة على التسبيح والتحميد تملأ .

والصلاة نور : أى الصلاة كالنور فى الهداية إلى سبل الخير وإزارة حياة المصلى وتنوير قلبه ،فتصبح معالم الخير واضحة أمامه .

الصدقة برهان : أى القربات المادية دليل قاطع على صدق إيمان المتصدّق وإخلاصه مع اللّه ــ عز وجل .

أ ــ التنزه عما لا ينبغى (من كل منهى عنه شرعا).

ب ــ فعل ما ينبغى من جميع الواجبات .

فإن الطهورالذى هو لغة: التنزه عن الدنس الحسى والمعنوى إحدى هاتين الدعامتين، وبالتالى فالطهور الشطر الأول للإيمان .

٢ ــ الإيمان باللّه شجرة مباركة تؤتى أكلها ــ إن غرست فى قلب طاهر نقى ــ ولا يمكن أبدا أن تثمر ولا أن تزهر إن هى زرعت فى قلب متعفن نجس ، ومن ثم ففاتحة الدخول فى هذا الدين ــ شهادة أن لا إله إلا اللّه ــ مركبة من نفى وإثبات « لا إله » يعبد فى هذا الكون ، أو يهرع إليه ، ويطلب فى السراء والضراء ــ إلا اللّه ــ ولأجل هذا عمل النبى ﷺ طيلة إقامته بمكة على هدم هذه العقائد الفاسدة ، وتنقية تلك القلوب من براثن الشرك باللّه وعبادة الطواغيت قبل أن يفرض عليهم الفرائض ويسن السنن مثلما هو الشأن لدى الفلاح الذى ينقى أرضه من الأعشاب الضارة والحشائش السامة أو المعيقة للزرع ثم يعكف على زراعتها .

إذًا فالشرك باللّه قذارة ما كان لمؤمن أن يلطخ بها نفسه ، قال تعالى : ﴿ **فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ** ﴾ [الحج : ٣٠] .

٣ ــ الميزان ووزن الأعمال يوم القيامة من السمعيات التى يجب الإيمان بها وقد تاه فى بيان حقيقة هذا الميزان ، وهيئته ، وسعته خلق كثير ــ سامحهم اللّه ــ من رجال علم التوحيد والمصنفين فيه ، والأجدر بنا وبهم أن نلفت الأنظار إلى ما يوزن ، قال تعالى : ﴿ **فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [المؤمنون : ١٠٢] .

وأن نقتفى أهْل السنّة فى الاعتقاد بأنه حقيقة لامراء فيها ــ أى الميزان ــ ونفوض معرفة كنهه إلى اللّه ــ عز وجل ــ قال تعالى : ﴿**وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ** ﴾ [الأنبياء : ٤٧] .

علم السلوك :

« الصبرضياء » .

فلا يزال المؤمن الصابر يستضىء بنور الحق ، فيسلك سبيل الهداية فى عباداته ، ومعاملاته ، والصبر على ثلاثة :

على المصائب وحرارتها ، وعلى العبادة ومشاقها ، وعلى الشهوة ولذائذها ، إلا أن الأمة زمن انحطاطها الفكرى وتدهورها الأخلاقى بابتعادها عن المنهج القويم

ومجاهرة أمرائها وحكامها بالسكر والمجون ... و ... و ... انقسمت فى مواقفها أمام ذلك إلى ثلاث طوائف :

ـ ذهبت الأولى إلى محاربة الطغاة وتبكيتهم ، والوقوف أمام عبثهم وفجورهم مما أوتوا من قوة البطش والفتك غير مبالين بسيوفهم وجنودهم ، وهؤلاء هم زبدة الأمة الإسلامية آنذاك وخيرتها الذين علموا أن أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر ، فجاهدوا وصبروا وصابروا حتى استشهدوا أو سجنوا أوعذبوا .

ـ وأمّا الثانية فقد استخفّها الحكام الفجرة ، واستهوتهم شياطينهم ، فانساقوا وراءهم ، وانصهروا فى بوتقتهم ، فجرفهم تيارهم الفاسد ، وهم الأكثر .

ـ وأمّا الطائفة الثالثة فقد اختارت الانزواء جانبا والعيش على هامش الحياة مختلية بنفسها ـ وهذا أقل القليل الذى يجب أن نفعله أمام الظلم والفجور عند العجز ـ وفى كثير من هذه الفئة العلماء والجهابذة فى فنون كثيرة من الثقافة الإسلامية .

غير أن المضحك المبكى فى آن واحد هو الوسائل التى اتخذها هؤلاء أو بعضهم لمجاهدة أنفسهم كأن يعلّق أحدهم نفسه ليلة كاملة فى شجرة ، أو يمشى من غير انتعال على المسامير ، أو يجوع نفسه ويلبس الخشن من الثياب ... إلخ ، فى حين أن الشارع ملىء بالابتلاءات والامتحانات التى تفرز المؤمن الصادق المجاهد من الفاسق المارق ، قال تعالى : ﴿ الٓمٓ . أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ﴾ [العنكبوت : ١ ، ٢] .

فهلا نزلوا من صوامعهم ، وصعدوا من خلواتهم ليقاسموا الأمة فيما تعانيه وليذودوا عن بيضة الدين ؟ ! وها هو سيد الوجود عليه الصلاة والسلام يشاهد فى الغزوات ـ إذا حمى الوطيس ـ وهو أقرب الناس إلى العدو هنالك المحك .

الفقهية :

« الطهور شطر الإيمان » .

١ ـ يحرم على الجنب الطواف بالبيت الحرام ، والصلاة ، ومس المصحف ، ويحرم عليه وعلى الحائض الدخول إلى المسجد .

٢ ـ عبادة الأوثان رجس ؛ لقوله تعالى : ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ ﴾ [الحج : ٣٠] .

وعبّادها فى حكم المتنجسين ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ﴾ [التوبة : ٢٨] .

واختلف العلماء فى معنى وصف المشرك بالنجس فقيل : لأنه جنب ، وقال ابن عباس وغيره : بل معنى الشرك هو الذى نجّسه .

﴿ فَلا يَقْرَبُوا ﴾ نهى ؛ ولذلك حذفت منه النون ﴿ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ ﴾ هذا اللفظ يطلق على جميع الحرم ، وهو مذهب عطاء ، فإذا يحرم تمكين المشرك من دخول الحرم أجمع ، فإذا جاءنا رسول منهم خرج الإمام إلى الحل ليسمع ما يقول ، ولو دخل مشرك الحرَم مستورا ومات نبش قبره وأخرجت عظامه. فليس لهم الاستيطان ولا الاجتياز (١) .

الأخلاقية :

« الصلاة نور » .

الصلاة نور وضّاء تنير على صاحبها سبيل الرشاد ، وتهديه إلى الأخلاق الفاضلة والمبادئ القويمة بحيثُ تربّى فى المؤمن روح المراقبة والخوف من اللّه ، فلا يحرك المصلى ساكنه إلا ويتذكّر موقفه الخطير أمام العليم الخبير وهو يناجيه ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة : ٤] :

قال تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

التربوية :

« . . . الطهور شطر الإيمان . . . » .

إن العبادات الإسلامية كلها ــ لا الصلاة وحدها ــ ليست هدفا فى حدّ ذاتها، أرادها الإسلام وحدها فى تشريعه الخالد ، بل هى وسائل فحسب لتحقيق غاية سامية وهى : تزكية النفس وتربيتها وتقويمها والسموّ بها من حضيضَ الحيوانية الأرضية إلى الصفاء الملائكى السماوى ، قال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ من دَسَّاهَا ﴾ [الشمس : ٩ ، ١٠] .

كما بيّن الحق سبحانه مهمّة الرسول الكريم فى قوم أحيوا الرذيلة على جثمان الفضيلة ، واستنكروا المعروف ، وأمروا بالمنكر، فقال عز وجل :

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة : ٢] ، وقال سبحانه : ﴿ خُذْ مِنْ

(١) تفسير القرطبى ٨ / ٦٧ .

أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ﴾ [التوبة : ١٠٣] .

وتزكية النفس تنقيتها من شائبة الشرك الذى يورثْ نكران الجميل ، ومن الحقد تجاه أى إنسان كان ، ومن رذيلة الحسد ، والبغضاء ؛ لأن العبرة فى إسلام المؤمن ، بل وفى إنسانية الإنسان كإنسان بغض النظر عن عقيدته وتدينه ليست فى قماشه ولا فى جلده ، أوشعره بل بدخيلته ، وقلبه الذى هو محط نظر اللّه عز وجل للحديث الوارد عن رسول اللّه ﷺ : «إن اللّه لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم » من أجل هذا كله اعتبرت الطهارة النفسية النصف الأوّل للإيمان .

النفسية :

« والحَمد للّه تملأ الميزان . . . وسبحان اللّه »

يعيش الغرب ــ والمتغرّبون معه ــ فى دوّامة من القلق الروحى والاضطراب النفسى حيث لا قرار لهم ، ، ولا أمن بينهم ، ولا هناء أمامهم .

فكم من أرواح أزهقت انتحارا ، وكم من المهدئات ابتلعت مرارا . . . وكم وكم . . . وكم من زيجات فشلت . . . وأطفال يتّموا . . . وأموال أهدرت، ودماء سفكت ضحية الفراغ الروحى الهائل والمرعب الذى يُعانونه ، والدواء منهم ليس بالبعيد فللّه در القائل :

كالعيس فى البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول

ومبعث ذلك القلق هو جهل الملحد بنفسه وبمصيره ، ومستقبله وأصله وفصله ، فهو بين خرّاص يدعى أن أصل الإنسان قرد ثم تطوّر ، وأفاك يتبجّح بالصدفة والذاتية . . . وهلم جرّا . . . وهى تيارات عقيمة ضالة ومضلة لم تزد الحائرين إلا حيرة واضطرابا ، ولم يدر هذا المسكين أن فى القرآن الكريم ضالته المنشودة ، وفى ذكر اللّه دواؤه الناجع ، ولذلك فإن المؤمن يعى كل ذلك ، ويعيش فى أمن تام واستقرار كامل، يذكر اللّه سبحانه ﴿ ألا بذكْرِ اللّه تطْمئنُّ الْقُلُوبُ . الَّذين آمنُوا وعَملُوا الصَّالحات طُوبَىٰ لَهُمْ وحُسْنُ مَئاب ﴾ [الرعد : ٢٨ ، ٢٩] .

يدرك أن أوله لا شىء ولكن كان بإذن اللّه ؛ ولذلك لا يحمل همّ حياته ؛ لأن الذى خلقه من العدم هو الكفيل برعايته .

ويدرك أيضا أن مفرّج الكرب هو اللّه وحده حتى وإن ضاقت به الأرض بما رحبت وتكدّر صفوحياته ومع ذلك لن يفقده ثقته بربه مطلقا فيهرع إليه متمثلا بقوله سبحانه :

﴿ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٧] .

وإذا فشل فى تجارته أو قتر عليه رزقه فإنه لا يفكّر إلا فى الالتجاء إليه سبحانه؛ لأنه الغنىّ ولأنه الباسط...فلم الأرق ..؟ ولم الانتحار ..؟ ولم الجنون، قال تعالى: ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ ﴾ [البقرة : ٤٥] ، تلك هى الراحة النفسية التى لن يكتسبها المرء بالأقراص ولا بالحقن المهدئة ، بل بذكر اللّه وهى التى يسعى العالم قاطبة لاكتسابها ، ولكن هيهات أن يدركها غير ذى اللسان الرطب بذكر اللّه .

وقد كان أهْل الذكر ينعمون بها فقال قائلهم : ــ وكان رث الثياب أغبر الوجه ــ واللّه لوعلم الأمراء بما نحن فيه لقاتلونا عليه فأنعم بذكر اللّه ؛ سواء أكان حمدا أو تسبيحا وتمجيدا ، أو هيللة وتوحيدا . من علاج نفسانى ربّانى ناجح ،عن أنس رضى اللّه عنه : «ذكر الله شفاء القلوب » (١) .

الحضارية :

« والحمد للّه تملأ الميزان ».

مراحل الحياة الثلاث : (ضعف ، ثم شباب وفتوة ، ثم شيخوخة وترهل) سنة كونية لا تشذ عنها الحضارات هى الأخرى ، فهى تنطبق على أى كائن فى هذا الكون من المخلوقات، قال اللّه تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ﴾ [الروم : ٥٤] .

وليس هذا مبرّرا لإجهاض أى حضارة ، أو موتها فى المهد؛ لأن أعمار الحضارات تتفاوت تفاوت أعمار الأفراد ، فكما أن الإنسان المتعهّد لصحته ، المراعى للقواعد المنصوح بها طبيّا، وذلك بأكل ما يصلح البدن ويقوّيه ، ويتعاطى نماذج رياضية معينة تساعده على تنشيط بدنه ، يستطيع أن يحتفظ بحيويته وشبابه أكثر من الذى يهمل كل هذا ، حيث يهوى للشيخوخة والترهل سراعا .

تماما مثلما يجب على بناة أىّ حضارة ، والمنظرين لقواعدها أن يراعوا ذلك فيهيئوا عناصر بقاء تلك الحضارة ، ويولوا اهتمامهم الأكبر للإمداد الطاقوى الذى يضمن استمرارية حضارتهم وديمومتها .

وتختلف فعالية تلك العناصر المسؤولة على بقاء الحضارة باختلاف مصادر الحضارات نفسها .

---

(١) الجامع الصغير .

فالحضارات الأرضية التى مصدرها الفكر الإنسانى لا غير كحضارة قرننا هذا تستمد قوتها من طاقات أرضية ــ إنسان ، كهرباء ، فحم ، بترول ، معادن مختلفة ــ وهذه كلها إلى نفاذ وهلاك ، وذى أزمات طاقوية متعددة دليل معاصر على عدم بقائها، ولست فى حاجة إلى القول: إنها تحمل معاول هدمها بنفسها لتعزيز ما ذهبت إليه أولا.

وأمّا حضارة الإسلام فإنها الحضارة الوحيدة التى تستمد عناصر بقائها من خلود مصدرها الأساسى ، وهو اللّه عز وجل : ﴿ **كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ . وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ** ﴾ [الرحمن : ٢٦ ، ٢٧] .

وتملك أيضا طاقات تجديده عبر العصور ، بل ولديها ما تبعث به نفسها من جديد. فلقد كادت أن تنضوى حضارة صدر الإسلام بفعل العواصف التى هدّت الساحة السياسية ، ولكن الأمة لم تفقد الأمل حتى قيّض اللّه من يجدّد هذا الدين ، ويزيح ما علق به من غبار ، ويظهر معالم حضارته المتجدّدة؛ إنه الخليفة الخامس ــ كما يلقبه البعض ــ عمر بن عبد العزيز وذلك على رأس المائة الأولى ، وسخر للثانية من بين من سخرهم : العالم الجهبذ الإمام الشافعى ، وللخامسة حجة الإسلام أبوحامد الغزالى وغيره ، وتوالى المجددون فى كل عصر ومصر ، وكانوا دوما يسعون إلى أن تتفادى الأمّة مقوضات الحضارة ، ويجنّبوها أخطار هذه الأدواء التى تهد كيانها وتأتى على أسها ومنها :

أولاً : الإشراك باللّه ــ عز وجل ــ الذى هو سرطان الحضارات : البابلية ، والآشورية، والفرعونية ، والرومانية ، والفارسية ، ولا أخال حضارة الغرب اليوم تفلت من قبضته ، بل لا زال ينهشها حتى يرديها ، وتلك هى سنة اللّه التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة اللّه تبديلا ولا تحويلا قال تعالى : ﴿ **وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا . كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا . وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا . وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا . وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا . قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً . لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا . وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا . فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا . أَوْ يُصْبِحَ**

مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا . وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ [الكهف : ٣٢ ـ ٤٢] .

ثانيا : موالاة الطواغيت من دون اللّه داء خطير هو الآخر؛ لأنه قَدْ يؤدّى إلى الشرك باللّه ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا . ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ [محمد: ١٠ ، ١١].

ثالثا : البطر والغرور معبرٌ إلى الإشراك باللّه ، قال تعالى حكاية عن المغتر بثروته الذى كان من قوم موسى : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ﴾ [القصص : ٧٨] .

والبطر هو كفران النعمة والجحود بفضل اللّه الذى رتب بقاء نعمه على حمده ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل : ١١٢] .

ومن حصاد الغرور عدم الالتفات إلى الفقراء والمساكين ومشاركتهم فى الأموال والأقوات . قال تعالى فى شأن أصحاب الجنة الذين تسبّبوا بمنعهم حقوق المعوزين فى خراب جنّتهم ودمارحائطهم الجميل:﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ . وَلَا يَسْتَثْنُونَ . فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ . فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ . فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ . أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ . فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ . أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ . وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ . فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ . بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ [القلم : ١٧ ـ ٢٧] .

رابعا : ومن الأمراض المهلكة التى بليت بها كثير من الأمم والشعوب : عدم السير وفق المنهج الربانى القويم ، ويرجع سر البلية هذه إلى الاعتداد بالعقل وحده شأن الحضارة المعاصرة ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فما كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الروم : ٩ ، ١٠] ، ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ﴾

[القصص : ٧٨] الآيات السابقة .

إذًا استخلص لدينا أن الحمد هو سر بقاء الحضارات وازدهارها وامتداد آجالها قال عزّ من قائل : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُم ﴾[إبراهيم : ٧] ، فاللهم لك الحمد حمدا يوافى ما تزايد من النعم ، والشكر لك على ما أوليتنا من الفضل والكرم .

الفلكية :

لعلّه ليس من المصادفة أبدا أن تعبّر بلاغة النبىّ الأمىّ عن حقيقة علمية دقيقة أثبتتها الأبحاث الفلكية بعد قرون عدة من وفاة المصطفى ﷺ حيث وصف الصلاة بالنور ، والصبربالضياء فقال : « والصلاة نور ، والصدقة برهان ، والصبر ضياء » وهذا الوصف نفسه ــ الضياء والنور ــ ورد فى قول الحق سبحانه : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا ﴾[يونس : ٥] ، جعل الشمس ضياء لا نورا ؛ لأن أشعتها ذاتية ، فهى نار ملتهبة تمدّ بعض الكواكب السيارة الدائرة حولها والقريبة منها بالضوء فتعكس هذه الكواكب تلك الأشعة المتساقطة عليها ، وهذا ينطبق على القمر الذى يؤدّى دور المرآة العاكسة لضوء الشمس .

وإنما كان الصبر ضياء ، والصلاة نورا ؛ لأن الصبر بالنسبة إليها كالأصل مع الفرع، فلولا الصبر ما أقيمت الصلاة ، ولذلك قال ربنا : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾[البقره :٤٥] ، ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا ﴾[آل عمران : ١٢٠] .

فقه الدعوة

١ ــ الدعوة فى سبيل الله اليوم ليست فى حاجة إلى الرجال فحسب بقدر ما هى فى أمس الحاجة إلى وسائل الدعوة المختلفة والتى تعدّدت وتطورت .(من صحيفة ، إلى ... إلى مجلة ، إلى أشرطة فيديو ، إلى أحاديث تليفزيونية ، إلى مدرسة ومعهد ... إلى ... إلى) .

وينبغى كما يقال : لكل مقام مقالة ، ولكل نزال سلاحه ، بل ورب قول أنفذ من صول .

وإننى لأعجب من مصير الأموال الطائلة التى تنفقها الأيادى الإسلامية السّخية فى ديار الغرب ، وإن كنت أبتهج بها إذ تكّرس مصداقية إيمان أصحابها وإخلاصهم مع الله ــ عز وجلّ ــ واستجابتهم لقول الحق سبحانه: ﴿ وتُجاهِدُونَ فِي سبيلِ اللهِ بِأَموالِكُم

وَأَنفُسِكُم ﴾ [الصف : ١١] ، وعقدهم للصفقة المربحة ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [التوبة : ١١١] ؛ ولذلك عبّر عنها الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه أروع تعبير حيث قال : « والصدقة برهان»(١).

ولكن لا يلبث ابتهاجى أن ينقلب إلى حيرة وقلق حين تصرف هذه الأرصدة فى زخرفة المساجد ، مساجد لا تؤدى فى بعض الأحيان إلا دور التمييز الطائفى والتحيّز الجهوى ، ولا يصدق عليها اسم الجوامع فى هذه الحال ، أو مراكز علقت فى مداخلها أسماء إسلامية ، أو ثقافية ، أو تربوية بلا مسمّيات إن هى إلا كالتماثيل الجوفاء ، حتى إذا ساقك القدر ورحت تدلف فى ساحاتها أبهرتك بأضوائها وقببها ، وأساطينها ، وفرشها وأرائكها ، وتعدد مكاتبها ، وبجمهرة مديريها ، حيث تجد المدير ، ونائبين له . . . والسكرتير العام ونائبه ، وكاتبه العام . . . والخاص ثم المحور أمين المالية . . . وهلم جرا . . . من هذا الغثيان الذى أصيبت به الأمة حيث تسمع جعْجَعَة ولا ترى أثر الطحن مطلقا .

لقد برهن المؤمنون على إيمانهم ، ولكن هؤلاء لم يبرهنوا بإخلاصهم وعلمهم ، وحنكتهم .

وليت هؤلاء العلماء ، والإداريّين ، والمخططين . . . و . . . أخذوا العبرة من دعاة كثير من المذاهب الأرضية ، والديانات المحرفة ، وسايروهم فى استغلال الأجهزة الحديثة للدعاية لما يعتقدون، والتبشير بما يؤمنون .

ولنا أخذ الصحيفة والمجلة كمثال أول على ذلك ، حيث أغرقت الشيوعية العالم بالمئات من الصحف وعشرات المجلات التى تبلور فلسفتها وتعرضها بأساليب علمية ، وطرق فنية جذابة .

ولنضرب مثلا بفرنسا كبلد غربى متفتح ــ كما يقال ــ التى سبق المهاجرون العرب إليها غيرهم ، ويفوقون اليهود فى العدد لا فى العدة ! فلتجد لى مجلة إسلامية ــ بكل معنى إسلامية ــ تصدرها تلك الجالية ــ بلا تحفظ ــ ثم لتبحث هل تجد مكتبة تخلو من مجلة يهودية أو صحيفة شيوعية ؟

إن فقهاء الدعوة إلى هذه التيارات عملوا بقولة القائد الفرنسى نابليون بونابرت

---

(١) رواه مسلم .

(ثلاث صحف معادية أكثر بطشا من ألف بندقية) فهلا فقهها فقهاؤنا ؟!

٢ ــ إن الداعية المحنّك هو الذى لا يعتمد فقط على استثارة عواطف الجماهير واستلهام مشاعرها، وإن كان هذا يعد مرحلة هامة فى الدعوة الإسلامية ويعتبر صاحبه ناجحا إلى حد كبير فى دعوته ، ولكن الإفراط فيه هو العيب ؛ لأن الإسلام يخاطب القلوب والوجدان كما يخاطب العقول والأذهان، ولكن دعاة الإسلام اليوم ويالللأسف بين عالم بحلال القرآن وحرامه يقبع فى محرابه الساعات الطوال يحدث الناس بأسلوب فكرى جامد ، وبألفاظ اصطلاحية مملة ، وطريقة عقيمة ،تراه يخوض فى تفاريع دقيقة، وأقوال متشعّبة تعزب عن بعض الخاصة وتعجز عن فهمها بله عمن يحدثهم من العامة. وفريق ثان يعتمد على ألفاظه الرنّانة ، وعباراته الجذّابة ، ومقدرته الفائقة فى التصوير ، والتهويل ، والتفخيم ، تدق كلماته القلوب دقا، ولكنها لا تلبث حتى تملّ وتفر ؛ لأنها فتحت أبوابها طويلا فلم يدخل شىء ، فهى كالعسكر الذى يعلن قائده فيه حالة التأهب القصوى ،ويستحثّه على القتال والنزال بخطبه الحماسية . . . ولكن دون أن يلقى عدواً . . . ويظل هكذا إلى أن تتلاشى تلك العواطف الجياشة، ومللها فى هذه المرة أخطر بكثير من ذى قبل !!

لأنها لن تستجيب لداعٍ أبدا، مهما دوّت صفاراتُ الإنذار، وبحّت حناجر الدعاة.

ولهؤلاء وأولئك أسوق وسطية أستاذ الدعاة محمد ﷺ حيث خاطب العواطف فى مطلع حديثه حتى تفتّحَت نفوس الصحابة إلى ملء الميزان ، وإلى الأنوار والضياء ، ثم قرع العقول بقوله : « والقرآن حجة لك أو عليك » .

تطبيـق

١ ــ أصيبت الدعوة الإسلامية بأقوام يتلبسون بها ، ويحشرون أنفسهم فى عداد أهلها وهم لها أعداء من حيث لا يشعرون ، يسيؤون لها وهم يريدون الإحسان ، إنهم أدعياء العلم والمعرفة ، نرى السكير العربيد الأمى الفارغ قد تاب منذ عهد قريب ، والتحى وتجلبب ، ثم لا يلبث أن يغتر فى نفسه حيث شابه بعمامته وجلبابه عمائم العلماء وجلابيبهم ، أو تدفعه عاطفته ويشحذ عزيمته إخلاصُه ــ وكثيرا ما كانت العواطف مرديات ــ فيجلس للتدريس ، وحينها جاز لنا على القواعد النحوية البكاء ، ويقدم للدعوة الإسلامية بمجلسه العزاء ولله درّ من قال :

إذا أردت أن تدعى فقيه قوم فطوّل الكم ثم عمم

ولا يكاد يحفظ آية أو يفقه حديثا ، وهاهم الصحابة العرب الأقحاح الذين رضعوا

الفصاحة والبيان مع ألبان أمهاتهم يحتاطون فى الرواية عن رسول اللّه خوفا من أن يتبوأ أحدهم مقعده فى النار ،فهذا الحارث بن عاصم الأشعرى يشك فى لفظة واحدة فيقول: « تملآن أو تملأ » .

٢ ــ البعْض من حملة كتاب اللّه اليوم هم حرب عليه يعاكسونه فى أحكامه، ويخالفونه فى أوامره ولا يتورّعون فى إتيانهم نواهيه ، فيسترزقون بتلاوته على الأموات، وبكتابته فى التمائم ،فعملوا على ضياع الأمة بهزّ أصول عقيدتها ، وتشكيكها فى إيمانها ، فماهم إلا كما وصف اللّه بعض التّوراتيين بقوله : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ [الجمعة : ٥] .

٣ ــ إيمان بعض المؤمنين يعوزه الصفاء النفسى والنقاء الروحى مع اللّه ومع الناس أيضا ؛ لأن النبى ﷺ قسم الإيمان إلى شطرين وعد الطهارة المعنوية الداخلية النصْف الأول ، ومع هذا فإننا نعايش أقواما يصلون بصلاتنا ويصومون بصومنا وألسنتهم معنا ــ أى مع المسلمين ــ تثنى وتطرى ، وقلوبهم مع أعدائنا علينا يوالونهم لمحاربتنا ويبذلون ما فى وسعهم وأكثر لتثبيط الحركة الإسلامية ومحاولة إجهاضها والإجهاز عليها من الداخل .

الحديث الرابع والعشرون

عن أبى ذر الغفارى رضى اللّه عنه،عن رسول اللّه ﷺ فيما يرويه عن ربّه ــ عزّ وجل ــ أنه قال : « يا عبادى : إنّى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرّما فلا تظالموا ، ياعبادى : كلكم ضال إلا من هديته ، فاستهدونى أهدكم . يا عبادى : كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم ، يا عبادى : كلكم عار إلا من كسوته ، فاستكسونى أكسكم ، ياعبادى : إنكم تخطئون بالليل والنهار ــ وأنا أغفر الذنوب جميعا ــ فاستغفرونى أغفر لكم ، ياعبادى : إنكم لن تبلغوا ضرّى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى ، ياعبادى: لو أن أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئا، ياعبادى : لو أن أو لكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئاً، ياعبادى : لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنّكم قاموا فى صعيد واحد ، فسألونى فأعطيت كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر ، يا عبادى : إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد اللّه ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » رواه مسلم .

تخريج الحديث :

أخرجه مسلم من روايتين : الرواية الأولى هى رواية سعيد بن عبد العزيز عن ربيعة بن زيد عن أبى إدريس الخولانى عن أبى ذرّ ، وفى آخره قال سعيد بن عبد

فيما يرويه عن ربه : هذه إحدى الصيغ التى تستعمل فى رواية الأحاديث القدسية .

أنه قال : أى أن اللّه تعالى قال .

يا عبادى : ويشمل الإنس والجن ، فكلاهما مقصود بالنداء ، وناداهم ربهم بـ « يا » التى تستعمل لنداء البعيد؛ لكثرة الغافلين منهم .

حرمت الظلم على نفسى: ليس المراد هنا تحريم حقيقة الظلم ؛ لأن الظلم كما فسر فى بعض الأحيان هو التصرف فى ملك الغير وهذا مستحيل فى حق اللّه ــ عز وجل .

وجعلته بينكم محرما أى قضيت أزلا بتحريمه ، وشرّعت ذلك بوحى منّى .

فلا تظالموا . إما بفتح التاء وتخفيف الظاء على الأشهر ، وإمّا بقلب إحدى التاءين ظاء ؛ لأن أصلها «تتظالموا» وإدغامها فى الظاء .

العزيز: كان أبو إدريس الخولانى إذا حدّث بهذا الحديث جثى على ركبتيه. والرواية الثانية عن قتادة عن أبى قلابة عن أبى أسماء عن أبى ذرّ عَن النبى ﷺ، كما خرجه الإمام أحمد والترمذى وابن ماجه من رواية شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم عن أبى ذرّ ، قال الإمام أحمد: هو أشرف حديث لأهل الشام .

دروس وعبر من كلام سيد البشر

مصطلح الحديث :

لعلماء الحديث مفارقات يفرقون بها بين الأحاديث النبوية والأحاديث القدسية من جهة ، وبين هذه الأخيرة والقرآن الكريم نفسه ، ووضعوا ميزات كل على حدة .

فعلى سبيل المثال يُعرف الحديث النبوى من القدسّى بكون لفظ الحديث النبوىّ من عند الرسول ﷺ ، وأمّا معناه فبوحى من اللّه ــ عز وجلّ ؛ لقوله تعالى : ﴿ **إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى** ﴾ [النجم : ٤] بخلاف القدسى فهو من عند اللّه لفظا ومعنى .

ومن فوارق الحديث القدسى عن القرآن الكريم :

أ ــ أن القرآن نزل للتحدّى والإعجاز بكامله وبأقصر سورة منه بخلاف الحديث القدسى .

ب ــ والقرآن يحرم حمله وقراءته على الجنب بخلاف الحديث القدسى .

جـ ــ ولا يتعبّد بالحديث القدسى بعكس القرآن الكريم .

ومن أراد التوسع فى دراسة هذا الجانب من الأحاديث فعليه بكتب علم الحديث الميسّرة المختلفة كـ :(محاضرات فى علم الحديث)للمرحوم الشهيد الدكتور : ــ صبحى الصالح ــ رحمة اللّه عليه .

العقائدية :

١ ــ مما يستحيل فى حق اللّه سبحانه وتعالى الظلم، فقال: ﴿**وَمَا أَنَا بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ**﴾ [ق : ٢٩] ، وقال : ﴿ **وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ** ﴾ [غافر : ٣١] ، وقال : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا**

= **كلكم ضال** . قد تكون الكلمة على حقيقتها إذا كان الضلال بمعنى الغفلة عن الشىء ، وقد تكون من قبيل الحكم على الأكثرية إذا كان الضلال بمعنى سلوك طريق الشر بعد تبّين الحق ؛ لأن الأنبياء والمرسلين ليسوا ضالين بهذا المعنى .

ياعبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار : الرواية المشهورة : تخطئون بضم التاء ، وروى بفتحها وفتح الطاء.

فى صعيد واحد : الصعيد يُراد به وجه الأرض .

المخيط : أى الإبرة آلة الخياطة .

يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا ﴾ [يونس: ٤٤]، وقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ [النساء: ٤٠]، وقال: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا ﴾ [طه : ١١٢].

٢ ــ الخلائق كلها مفتقرة إلى خالقها ــ عز وجلّ ــ وذلك فى جميع شؤونها فهى لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرّا ولا حولا ولا قوّة ؛ لأن خزائن السموات والأرض هى أملاك اللّه عزّ وجلّ ومفاتيحها بيده ، وعلى المؤمن دوما أن يجدّد إيمانه ويصحح عقيدته فى اللّه ترسّما لسبل الأنبياء والمرسلين ــ صلوات اللّه وسلامه عليهم ــ وعلى شيخهم الخليل أجمعين ، حيث وقف عليه السلام تلك الوقفة الإيمانية ليعلن لقومه وللعالم أجمعين براءته من كل معبود غير اللّه سبحانه : ﴿ قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ . أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ . فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ . الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ . وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ . وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ . وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ . وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ [الشعراء : ٧٥ ــ ٨٢] .

ولا يتم تصحيح عقيدته إلا إذا اعتمد على اللّه فى أساسيات حياته كلها وكمالياتها أيضا فى هدايته ، ومطعمه ، ومشربه ، وملاذه ، ولا يركن فى شىء من ذلك لغيره تعالى الذى ضمن له العيش ، وهو فى أحشاء أمّه وممّا نقل عن حكم عيسى عليه السّلام: « ابن آدم أنت أسوأ بربّك ظنا حيث كنت أكمل عقلا ؛ لأنك تركت الحرص جنينا محمولا، ورضيعا مكفولا، ثم أودعته عاقلا قد أصبت رشدك وبلغت أشدك».

أ ــ ففى استهدائه يجب ألا يهرع لغير اللّه طالبا الهداية والتوفيق والسداد؛ فالهداية نوعان : هداية مجملة ، وأخرى مفصّلة .

الهداية المجملة : هى هداية الإسلام والإيمان قرارها القلب ، وهى سكينة تخالط شغاف القلب، واطمئنان يخامرالوجدان ، وسعة فى النفس وانشراح فى الصدر للإسلام ، واقتناع فكرى ووجدانى ، وليس فى هذا كله للإنسان وحيله دخل مهما تناصرت الخلائق على ذلك ، قال تعالى : ﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ﴾ [الأنعام : ١٢٥] ، ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [القصص : ٥٦] ، ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ من في الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : ٩٩] .

وأما الهداية المفصلة : فهى هداية إلى معرفة تفاصيل أجزاء الإيمان والإسلام

والإعانة على فعل ذلك ، وهى دراية لأحكام الشريعة الإسلامية بعد دراسة متأنية ، ومن بعد ذلك تطبيق وترجمة إلى ميدان العمل ، وليس للمؤمن إلاّ أن يجأر بدعائه ورجائه إلى من بيده الأمر كله ، ثم يعزم مستعينا بما آتاه اللّه من ذكاء وفطنة وقوة متقوّلا بما قوّل اللّه به نبيّه عليه السلام : ﴿ وَقُل رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾[طه : ١١٤] .

وها هم الأنبياء والمرسلون يبرؤون إلى اللّه فى الحول والقوّة بدءا من والدى البشرية ــ آدم وحواء ــ عليهما السلام ﴿ قالا ربّنا ظَلمنا أنفُسنا وإن لَمْ تغفرْ لنا وتَرْحمنا لَنكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرين ﴾[الأعراف : ٢٣]، ومرورا بآدم الصغير؛ نوح عليه السلام ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود : ٤٧] ، وانتهاء بخاتم النبيين وسيّد المرسلين حيث كان عليه الصلاة والسلام يقول فى دعائه بالليل : « اهدنى لما اختلف فيه من الحقّ بإذنك ، إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم » ، وأمر عليّا أن يسأل اللّه السّداد والهدى ، كما علّم الحسن رضى اللّه عنه أن يقول فى قنوته فى الصلاة: «اللهم اهدنى فيمن هديت » . والمؤمنون عامة يرددون فى كل ركعة يصلونها : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُستَقِيمَ ﴾[الفاتحة : ٥] .

ب ــ وفى استطعامه كذلك ؛ لأن الأقوات والأرزاق التى ينزلها مالكها بأقْدار ، فإن خزائنها ملك لله ــ عز وجل ــ قال تعالى : ﴿ وإن مِن شيءٍ إلاَّ عندنا خَزائنُهُ وما نُنَزِّلُهُ إلاَّ بقدرٍ مَعْلُومٍ ﴾[الحجر : ٢١] وهى مسخرة لخدمة الإنسان ومنافعه بالكيفية التى أرادها مالكها ــ عز وجل ــ وبنفس الكمية التى حددها وضبط مقاديرها ، قال تعالى : ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ . أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا . ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا . فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا . وَعِنَبًا وَقَضْبًا . وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً . وَحَدَائِقَ غُلْبًا . وَفَاكِهَةً وَأَبًّا . مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾[عبس : ٢٤ ـ ٣٢] ، وما دام الخالق للإنسان والحيوان هو المالك لما فى هذا الكون ، وهو الذى سلبها الحول المطلق والقوة الذاتية فقد ضمن لها منذ الأزل أقواتها أى منذ خلقه للسموات والأرض، قال تعالى : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وتجعلُون لهُ أندادا ذلك ربُّ العالمين . وجعلَ فيها رواسيَ من فوْقها وبارك فيها وقدَّر فيها أقْواتها فِي أربعةِ أيّامٍ سواءً لِلسّائلين ﴾ [فصلت : ٩ ، ١٠] ،﴿ وما من دابّةٍ فِي الأرْضِ إلاّ عَلى اللّهِ رِزْقُها ﴾ [هود: ٦] .

جـ ــ « ياعبادى كلكم عار إلا من كسوته فاستكسونى أكسكم»، ويأتى الكساء فى

أهميته للإنسان فى الدّرجة الثانية، وقد خصص النبى ﷺ الإطعام والكسوة ؛ لأنهما أهم شىء للإنسان فى هذه الحياة ، ولبيان شدة حاجة المخلوق للخالق وافتقاره إليه ، وما على هذا الإنسان إلا أن يستهدى الهادى عز وجلّ ويستطعمه ، ويستكسيه ، فإذا سأل ذلك من الله وحده فقد صحح عقيدته ، وجدد إيمانه وتحرر من العبودية لغير الله؛ لأنه أظهر حاجته وافتقاره إلى الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيد ﴾ [فاطر : ١٥] .

٣ ــ قد تثّاقل النفوس المريضة وتكلّ الأيدى المتكاسلة عن تعاطى أسباب الارتزاق، وتتخاذل عن القيام بالمهامّ المنوطة بها ، بادعاء التوكّل الذى خالطته مفاهيم استعمارية خطيرة ، وولجت منه أمراض نفسية آتت نتائج وخيمة على الأمة (١) .

٤ ــ « إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ». دلّ هذا على أن أفعال العبد تحصى ولا تنسى، والمحصى هو اللّه عز وجلّ بأمره ، والمباشرون لعملية الإحصاء همُ الحفظة من الملائكة الذين أوكل اللّه إليهم هذه العملية الدقيقة ومن بينهم (رقيب وعتيد)، أما الذى يكتب الحسنات فهو صاحب اليمين وأمّا الذي يدوّن السيئات فهو صاحب اليسار، قال تعالى : ﴿وإنَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ . كراماً كَاتِبِينَ . يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ ــ ١٢].

واستكتابهم ليس المراد منه تفادى نسيان اللّه أبدا ــ حاشا للّه ــ ﴿ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى ﴾ [طه : ٥٢] أو لخفاء شىء عنه وإن دق ، كلا ! إنما ذلك لحكم أرادها اللّه ؛ منها :

أ ــ أن العاقل حينما يدرك أنه مراقب ، وأعماله تحصَى عليه ينزجر عن فعل المعاصى.

ب ــ لبيان عدل اللّه ــ عز وجل ــ قال تعالى : ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ﴾ [الكهف : ٤٩] ، ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ﴾ [المجادلة : ٦] ، ﴿ مَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ . وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : ٧ ، ٨] .

جـ ــ ولإبكات المنكرين يوم القيامة يوم يشهد اللّه عليهم الحفظة والكتبة ، بل وينطق جوارحهم : ﴿ولَقَدْ خَلَقْنَا الإنسانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ .إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ .مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ .

(١) انظر كتابنا : المسلمون بين الكتاب والانتساب ص ٩٦ ، ط : دار البعث .

﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ [ق : ١٦ ـ ٢١] ،ولله در صاحب نظم : ترغيب المريد السالك حيث قال :

وكـل أفعـال العبـاد تـكـتب للعدل لا عن علم ربّى تعزب

علم السلوك :

المهتدى لا يمن على اللّه باستقامة سلوكه ، وقوة إيمانه ، وصدق معتقده ؛ لأنه لم ينل ذلك بمحض إرادته ، ومطلق عزيمته ، وببوادره الذاتية فحسب ، بل وصل إلى ما وصل إليه بتفضّل من اللّه ـ عزّ وجلّ ـ وتكرم منه. قال تعالى : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلاَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الحجرات : ١٧] .

لذا طلب منّا الحق سبحانه سؤال الهداية منه ، والحال أنّه يهدى من يشاء إلى الصراط المستقيم حتى لا يخالط بعض النفوس المؤمنة ما خالط قارون اللعين حيث وقف يتبجّح ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ﴾ [القصص : ٧٨] إذًا. فأنت ـ أيها المؤمن ـ لم تصل إلى اللّه بما عندك بل هو الذى أوصلك إليه بما عنده ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت : ٦٩] ، والكافر هو الآخر لم ينقطع عن اللّه بفعاله الذميمة ولكن اللّه هو الذى أبعده عنه، قال عز من قائل : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً ﴾ [يونس : ٩٩] .

نعم على المرء أن يكدَّ ويتعب ويجاهد نفسه ، ويلجمها ويسعى إلى مرضات اللّه بفعل الطاعات واجتناب المعصيات ، ولكنه لا يضمن لنفسه أهو من المقرّبين أم مّن المبعدين وما عليه إلا أن يستمسك بالحبل بقوّة ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً ﴾ [آل عمران : ١٠٣] .

الأصولية (١) :

نداء الحق سبحانه فى هذا الحديث: « يا عبادى » عام لا يعنى أمّة دون أخرى ، ولا مجتمعًا دون آخر،ولا عصرًا دون عصر ، ومبادئه هى الأخرى عامة أيضًا ، فالظلم بأنواعه ورد تحريمه وتشنيعه فى كل وحى سماوى ، ونصت الشرائع كلها بلا استثناء على خطورة الشرك ، وحملت عليه جميعا متضافرة فيما بينها حربا شعواء ؛ لأنه ظلم

(١) إشارة إلى شرع من قبلنا أوردت هذه الأمثلة ، وقد سبق ذكر هذا العنصر فى الحديث العشرين .

للحقيقة وظلم للنفس البشرية ، ووضع للأمور فى غير محلها ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيم ﴾ [لقمان: ١٣]، ﴿ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُون ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

كما جاءت صحف إبراهيم ، وصحف موسى ، وصحف شيث ، وتوراة موسى، وإنجيل عيسى، والقرآن الكريم بتحريم ظلم الإنسان لأخيه الإنسان قبل أن تكون للأمم ــ عصبة أو هيئة ــ فهذا القرآن الكريم يحكى محاورة هابيل لقابيل ــ ولدى آدم ــ الساخنة وكيف كان يتوجس خفية من النار ، أى أنه أدرك شناعة الاعتداء على النفس ﴿قال لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ . لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ . إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِين ﴾ [المائدة : ٢٧ ــ ٢٩] ،﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة : ٣٢].

ومن الظلم الذى أجمعت الشرائع السماوية كلها على تحريمه : الاعتداء على الأعراض والأموال ، قال رسول الله ﷺ فى حجة الوداع : « إنّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا » .

وفى الصحيحين عن ابن عمر عن النبى ﷺ أنه قال : « إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ، ثم قرأ: ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيد ﴾ [هود : ١٠٢] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « من كانت عنده مظلمة لأخيه فليتحلل منها، فإنه ليس ثم دينار ولا درهم من قبل أن يأخذ لأخيه من حسناته، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات أخيه فطرحت عليه »(١) .

الفقهية :

« يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار ــ وأنا أغفر الذنوب جميعا ــ فاستغفرونى أغفر لكم » . ما أعظم ذنوب الإنسان على هذه الأرض ، وما أهول المعاصى التى يقترفها آناء الليل وأطراف النهار ، ولكنها أهون بكثير من تعنته واستكباره وعناده وعدم استغفاره، وهو يعلم أن له ربّا تعهد بالغفران والتّجاوز ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ ﴾ [النساء : ٤٨ ، ١١٦] ،وقال: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً

(١) رواه البخارى .

﴿ أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّه ﴾ [آل عمران: ١٣٥]؛ لأن العيب ليس فى اقتراف الذنب مثلما هو فى الإصرار عليه ، عن أنس رضى اللّه عنه عن النبى ﷺ قال : « كل بنى آدم خطاء وخير الخطائين التوابون » (١) .

قال الفضيل بن عياض رضى اللّه عنه : (ما من ليلة اختلط ظلامها وأرخى الليل سربال سترها إلا نادى الجليل جل جلاله : من أعظم منى جودًا والخلائق لى عاصون وأنا لهم مراقب أكلؤهم فى مضاجعهم كأنهم لم يعصونى ، وأتولى حفظهم كأنهم لم يذنبوا فيما بينى وبينهم ، أجود بالفضل على العاصى وأتفضل على المسىء ، من ذا الذى دعانى فلم أستجب إليه ؟ ! أم من ذا الذى سألنى فلم أعطه ؟ ! أم من ذا الذى أناخ ببابى فنحيته ؟ ! أنا الفضل ومنى الفضل ، أنا الجواد ومنى الجود ، أنا الكريم ومنى الكرم ، ومن كرمى أن أغفر للعاصين بعد المعاصى ، ومن كرمى أن أعطى العبد ما سألنى ، وأعطيه ما لم يسألنى ، ومن كرمى أن أعطى التائب كأنه لم يعصنى ، فأين عنى تهرب الخلائق وأين عن بابى يتنحى العاصون) (٢) .

عن أبى هريرة رضى اللّه عنه عن النبى ﷺ قال : « والله إنى لأستغفر اللّه وأتوب إليه كل يوم مائة مرة » (٣) .

إذًا فالسبيل الأوحد لغسل آثار الخطايا ومعالم الآثام هو التوبة إلى اللّه ــ عز وجل ــ وللتوبة شروط قررها العلماء ــ رضوان اللّه عليهم ــ يتصدرها :

١ ــ الإقلاع عن الذنب : أول عمل يباشره التائب هو الإقلاع والابتعاد عما هوعليه من المعاصى بلا تباطؤ ، وبالتالى فلا يعدمن يملأ الكأس خمرًا تائبًا ، وإن أرداه الندم قتيلا ، أو من يزدرد لقمة الحرام ليأكل أخرى ، أو من انتهى من محرم وأطلق ساقيه للريح باحثا عن آخر ، كل أولئك كذابون إن أعلنوا توبة وادعوا ندما ! !

أما إذا أحجم العاصى عن عصيانه ، فقد أقام دعامة متينة من دعائم التوبة إذا كان الباعث على ذلك الخوف من اللّه تعالى ، غير أنه لا يعد تائبًا مالم يعزز ذلك بالدعائم الأساسية الأخرى .

٢ ــ الندم على ما فات : لأن الفطرة السليمة التى جبل عليها الإنسان هى الإيمان ومن معانيه السامية : نبذ المخازى واجتنابها ، وإتيان الأفعال الخيرية ، فإذا اعتقد الإنسان عقيدة الإسلام عن إيمان واقتناع ، فإن الوازع الدينى ينمو بداخله شيئا فشيئا

(١) أخرجه الترمذى وابن ماجه .
(٢) أخرجه أبو نعيم .
(٣) أخرجه الترمذى .

بمقتضى الإخلاص ومزاولة الطاعات التى هى تربية عملية لإيجاد ذلك الوازع وهو ما يسميه البعض بـ (الضمير) ، ووظيفة ذلك الوازع هى المراقبة التامة وفق مبادئ الشرع الحكيم حتى إذا ما زاغ المرء وحاد عن الجادة قوّمه بالوخز والتأنيب والعتاب الذاتى الدائم، إنه بحق الشرطى الداخلى . فالتائب حينما يقلع عن الذنب يستعرض تاريخه المظلم بكل ألم وهو يتقزز من تلك الأفعال المخزية بكل أسى وحسرة ؛ لأنه أضاع ردْحًا من الزمن هباء منثورا ، ثم لأنه لا يستطيع أن يدير عجلة الزمن إلى الوراء .

٣ ــ العزم على ألا يعود : يتعهد التائب للّه بالاستقامة المطلقة بدءًا من إعلان توبته، وبالالتزام بكامل أوامر الإسلام ، ولا يعكر صفو ذلك التعهد تلك العثرات الإنسانية طالما يعقبها بتوبة نصوح . ذى هى أركان التوبة الأساسية إذا لم يكن الذنب فى حق المخلوقين، وإلا فلا تكفى تلك العناصر وحدها بل يجب أن يتوفر فيها .

٤ ــ رد المظالم إلى أهلها: وذلك بالتحلل من تبعات الآخرين المادية منها والمعنوية حتى تكتمل توبته .

الأخلاقية :

١ ــ يربى هذا الحديث القدسى روح التسامح والصفح فى قلب المؤمن. والحلم خلق جليل امتدح اللّه به خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة : ١١٤] وسمى به نفسه ، والحياة البشرية التى تعج بالجحود والنكران شاهدة له بالحلم ــ سبحانه ــ لأنه يسمع ويرى عباده الذين أوجدهم من العدم وتفضل عليهم بالآلاء والنعم وهم يجاهرون بعصيانه ومخالفة أوامره ، ومع ذلك يمهلهم ويمتعهم ، ثم إن استغفروه غفر لهم فأنعم به من رب كريم حليم !

٢ ــ « فمن وجد غير ذلك » فى الأولى ذكر ما يجده المؤمن الصالح : « فمن وجد خيرًا » ، وأما فى الثانية : فلم يذكره باسمه، إنما كنى بقوله تعالى :« غير ذلك»، وفى هذا تربية لنا على الترفع عن التلفظ بالألفاظ المستهجنة ، أو المؤذية أو مما يخرق جلباب الحياء ؛ لأن المؤمن ليس بفحاش ولا لعان ولا يلوث لسانا ــ كان يوما رطبًا بذكر اللّه ــ بما لا يليق أخلاقيًا .

الاجتماعية :

إذا كانت الشريعة الإسلامية التى حررت المرأة من قيود الاستعباد الفكرى والاجتماعى ، والسياسى ، والثقافى ، وأعادت لها كيانها وهيأتها لمكانة سامية فى المجتمع الإسلامى ، ولرسالة سامقة تنطلق من الولادة إلى إعداد عدة المجتمع الربانى من رجال وأبطال ، ومفكرين ، ومنتجين ، وزحزحة الرجل من سدة الاستعلاء

والاستكبار؛ لأنه رجل وجعلتهما فرسى سباق أمام الكرامة والشرف والعزة . قال تعالى: ﴿ **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾ [الحجرات : ١٣] ، ﴿ **فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ** ﴾ [آل عمران : ١٩٥] إذا كانت شريعة الإسلام قد فعلت ذلك ، فإنها لم تحذ حذو دعوات المغالطة التى دستها الأصابع اليهودية من وراء الستار فى الساحة الإسلامية ــ واحر قلباه ــ والتى تنكرت لأنوثة الأنثى ، وحملتها ما لا طاقة لها به ، وزجت بها فى ميادين لا قبل لها بها .

بل اعتبرت المرأة مرأة ، والرجل رجلا ، وراعت فى تشريعاتها وأحكامها تلك الفوارق النفسية ، والبيولوجية ، وعبارة الحق سبحانه فى هذا الحديث : « على قلب رجل » لعلها تشير إشارة لطيفة لذلك .

النفسية :

١ ــ « فلا يلومن إلا نفسه » . اللوم فى أرقى صوره عقاب فطرى رادع ، بحيث تعود نفس العاصى المذنب إذا خلد إلى الراحة وانفرد بنفسه ، تعود عليه بالتأنيب والتقريع وتوبخه على فعلته الشنيعة وتعرض عليه صورًا أزكى وأنقى يجب أن يسلكها ويترسم سبيلها،ولا تزال تقرعه حتى يتحلل إلى المخلوقين من مظالمهم ويستصفحهم[(١)]، ويتوب إلى بارئه ويستسمحه .

وقد ينقلب المجن فتصبح الملامة لا على تنكب طريق الخير واتباع غيره، بل يصبح المرء ويمسى ونفسه تلاحقه وتمارس ضغوطها عليه لينقاد لها فيهوى فى سبيل المهالك ﴿**وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ**﴾ [القيامة : ٢] ، ﴿ **فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ [المائدة : ٣٠] .

وقد يكون اللوم نذير شر وعقابا مسبقا لا طائل من ورائه ، فلا ترتدع منه النفوس، ولا تتقوم السلوك ، وغالبا ما يكون فى غير موعده ، وذى أمثلة ذلك ، هذا قابيل يتحسر ويتألم ﴿ **قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ** ﴾ [المائدة: ٣١]، ولكن بعد ماذا ! وهؤلاء أصحاب الجنة ﴿ **فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ . قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ . عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ . كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** ﴾ [القلم : ٣٠ ــ ٣٣] ، ﴿ **وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي**

(١) يستصفحهم : يسألهم الصفح .

obeikandl.com

﴿ لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ [الكهف : ٤٦] ، ثم هذه ندامة الشقى ولا شىء يرجى من الندم ساعتئذ ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ . وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ . يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ . مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ . هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ . خُذُوهُ فَغُلُّوهُ . ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ . ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴾ [الحاقة : ٢٥ ـ ٣٢] الآيات الكريمة .

٢ ـ وقوله تعالى فى الحديث القدسى : « يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى » لعل الابتداء هنا كان بالضر قبل النفع يشير إلى أن الإنسان حينما يتقوى ، ويستغنى تتحرك فيه أول ما تتحرك نوازع الظلم والاعتداء ، قبل أن ترشدها وتعقلها نوازع الخير. ولست بمبتدع أو مبتكر لهذا ، بل مستنبط من قول الحق تعالى فى تبيانه للنفس البشرية : ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا . إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا . وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ [المعارج : ١٩ ـ ٢١] ، ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ . أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴾ [العلق : ٦ ، ٧] .

السياسية :

« . . إنى حرمت الظلم على نفسى . . . وجعلته بينكم » .

لكى يضمن الحاكم شعبية مؤيدة له وآذانا صاغية لتوجيهاته وأوامره ونفوسا راضية يجب أن يتمثل هو أولا بما يأمر ، وأن يضمن هواه ونفسه قبل كل شىء ، فليس من العدل أبدا أن يطالب الحاكم بالسماع وآذانه صماء عن نداء الله وأوامره تعالى ونواهيه ، وعن الجياع الذين يتضاغون آناء الليل وأطراف النهار ، وعن آهات المظلومين وزفرات المقهورين، وصرخات الذين أثكلهم الظلم ، ويتمهم التعسف ، ورملهم الجور ، هذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقف فى الناس خطيبا يقول : أيها الناس ، اسمعوا وأطيعوا ! وينبرى له صحابى من الذين علمهم النبى ﷺ أن أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر ! (١) ،فما باله لا ينطق ويعترض إذا كان الحاكم هو الفاروق العادل . ويقول معترضًا أمام ذلك الحشد الهائل : لا سمع ولا طاعة ! ومع ذلك لم يغب عن الأنظار ، ولم يحطه العسس السرى والحرس الجمهورى ، بل يستفسره عمر : ولم ؟ ! فيذكر الصحابى أن قماشا غنمه المجاهدون وقسمه عمر بالسوية فكان نصيب كل كذا . . ولكن طول عمر الفارع لا يكفيه ما أخذ ! فأنّى له بهذا الجلباب الجديد ! فيوقف عمر ولده عبد الله ليعترف هذا الأخير أنه تنازل عن سهمه لأبيه !

---

(١) وحاشا سيدنا عمر أن يكون كذلك .

الاقتصادية :

« . . يا عبادى كلكم جائع . . كلكم عار . . » .

أ ــ المتوكل الحقيقى على اللّه هو الذى يجمع بين تعاطى الأسباب ، وتقديم المقدمات واستنفاد الطاقات ، وبين الاطمئنان إلى النتيجة التى يتركها إلى اللّه الذى يقرر ما يشاء وفقا لقضائه وقدره ، إلا أن التوكل أضحى ضحية المفاهيم الخاطئة التى ظلمتها الأفهام اليوم ــ وما أكثرها ــ حتى لقد ظن أناس أنه من باب التوكل على اللّه ، ومن صميم إيمان المؤمن أن يقبع فى بيته أو بزاوية من زوايا مسجد حيه ، ثانيا يديه ، سائلا اللّه الرزق الطيب، محتسبا إليه دون أن يحرك ساكنا ، مجنبا نفسه عناء الكسب والارتزاق والكدّ فى طلب العيش؛ لأن تعاطى الأسباب وبذل الجهود واستنفاد الطاقات يعنى عدم التوكل على اللّه .

ولكن مفهوما خاطئا كهذا أقعد الأمة عن العمل ، وقطع لها حبل الأمل . وغرس فى أبنائها العجز والكسل ، وألهاها بالنقاش العقيم والجدل ، وأرداها إلى هذا الوضع الذى لاتحسد عليه أمة قط .

ب ــ وآمنت طائفة أخرى بالميزان التجارى أكثر من إيمانها باللّه ، فذهبت تحل مشاكلها الاقتصادية بوأد الأجنة فى بطون أمهاتهم ، دون أن تتقصى الأمر وتبحث فى حقيقة هذه المشكلة وأبعادها وعملت على الاقتصاص من هذه المخلوقات البريئة بدل أن تستأصل جرثومة مشكلتها الاقتصادية ، وهذا لعمرى كفر بواح وحمق صراح ؛ كفر باللّه؛ لأن الأمة بفعلتها تلك تتهم اللّه بالعشوائية، وتعلن فقدان ثقتها بخالقها ، وتتبرأ من افتقارها إليه .

وحمق لأن هؤلاء مثلهم كمثل من شعر بصداع حاد وألم فى دماغه ، فعمد إلى قطع رأسه .

فقه الدعوة

١ ــ الداعية الإسلامى ليس شخصية مفروضة على الغير ، والدعوة الإسلامية هى الأخرى ليست ملكا وراثيا ، قال تعالى : ﴿ وإذِ ابْتَلَىٰ إبْراهيم رَبُّهُ بكلمات فَأتَمَّهُنَّ قَالَ إنِّي جاعِلُكَ للنَّاسِ إمَامًا قالَ وَمِن ذُرِّيتي قَالَ لا ينالُ عهْدي الظَّالمين ﴾ [البقرة : ١٢٤] .

وليست أيضا منصبا سلطويا يتقلده صاحبه بطلاقة لسانه، وحسن إقناعه فحسب ، بل هو مسؤولية رسالية لصاحبها مؤهلات من أساسياتها : مطابقة فعله لقوله ، وموافقة مظهره لمخبره ، وسره لعلنه ؛ لأنه مثال يحتذى به ، وأسوة يقتدى بها ، حتى يكون

أبلغ فى التأثير ، وأصدق فى التبليغ ، ولذا جاء فى الحديث : « يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرمًا » .

ورحم اللّه عمر بن عبد العزيز حيث كان يجمع أفراد عائلته ويعلن فيهم ما يعلنه لعامة الأمة ، وينهاهم عما نهاها عنه فكان له ما كان .

٢ ـ « يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته » . إن مهمة الداعى إلى اللّه هى تبيان سبيل اللّه بالحكمة والموعظة الحسنة ، وأما شرح الصدور وتنوير البصائر، فذلك على اللّه وحده ليس فيها للداعية شىء ، قال تعالى : ﴿ **إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء** ﴾ [القصص : ٥٦] .

أقول هذا وألاحظ بعض من يُسَمَّوْنَ بأهل الدعوة يمنون على بعض المهتدين أنهم كانوا سببا فى هدايتهم ، ويذكرونهم بماضيهم القاتم ، وبما كانوا عليه خاصة إذا خالف هؤلاء الدّعاة أو عارضهم فى رأى ما !

تطبيق

١ ـ ما الذى مكننا من التفريق بين الأحاديث القدسية والأحاديث النبوية ، لا شك أنه الإضافة، حيث لا يروى الحديث القدسى إلا وهو معزوّ إلى ربّ العزة تعالى.

إنها الأمانة العلمية الدقيقة التى تحلّى بها أهل الحديث ورجاله من العلماء المسلمين حتى إن المتتبع لكتب الحديث يجد الفرق واضحا بين قول الصحابى ، وقول النبىّ فى حين نجد فى أيامنا هذه من ينقل من هنا ومن هنا ، ويقول : ألّفْته أنا ، دون أدنى مراعاة لآداب الاقتباس والرجوع إلى الأمهات والأصول بحيث أضحت كثير من المؤلفات تتكرّر، وأصبح الكثير من المؤلفين الذين قلّ ماء وجوههم يجترّون ويردّدون أقوال السلف وآراءهم وعباراتهم ناسبينها لأنفسهم !

٢ ـ « كلكم ضالّ » . الأغلبية الساحقة ، والكثرة الكثيرة ضالة ، منحازة عن الصراط القويم ، متنكّبة للحق ، فلا يضير الإسلام شىء ، ولا يضل الداعى باخع نفسه من أجل هذه الكثرة الملحدة ؛ لأن قيمة الحق لا تقدّر بكثرة الأتباع وجمهرة المؤيّدين .

٣ ـ مهما بلغ المرء غنى فلن يغنيه ماله ومتاعه عن الناس مطلقا ، بل هو محتاج إلى زرع الزارع ، وحصاد الحاصد ، والخباز ، والحداد ، والنجار . . . وإلى زوجة ، وولد ، و . . . و . . . لأن الإنسان كما قال العلامة ابن خلدون : مدنّى بالطبع ، وقس على ذلك الدول والشعوب والأمم ؛ لذا قام نظام التبادل التّجارى ، فالدولة الصناعية

محتاجة للدولة الزراعية ، ومحتاجة أيضا للتى تملك المواد الخام كالبترول ، والمطّاط ، والحديد . . . وتلك سنة اللّه فى خلقه ولا يستغنى عن المخلوقين أحد سوى الخالق سبحانه ، الصّمد الذى لا ينفعه الغنى بغناه ، ولا المتعبّد بعبادته ، ولا يضرّه العكس أيضا .

٤ ــ التعبير بقوله : « ما زاد ذلك . . . ما نقص . . . » هادف ، فلا يتصوّر أبدا أن مخلوقا مهما كان يستطيع زيادة شىء فى ملك اللّه أو نقصه سواء فى ظواهره الكونية أو آياته السماوية والأرضية المختلفة أو فيما عداها ، وبالتالى فالصناعات المختلفة ليست خلقا وإيجادا من العدم كلا !

بل هى مزج وتركيب واكتشاف وفق سنن معينة .

وكذا الاكتشافات ليست هى الأخرى خلقا بل هى بمثابة المرآة العاكسة التى ليس لها أىّ دور فى إيجاد ما تعكس ، بل لها دور الانعكاس فحسب ؛ لأنه خاصّية من خصائص مادتها المكوّنة لها . واللّه أعلم .

الحديث الخامس والعشرون

عن أبى ذرّ رضى اللّه عنه أيضا أن ناسا من أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم قالوا للنبىّ صلى اللّه عليه وآله وسلم : يا رسول اللّه ،ذهب أهل الدّثور بالأجور، يصلّون كما نصلّى ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدّقون بفضول أموالهم ، قال :« **أو ليس قد جعل اللّه لكم ما تصدّقون ؟ إن بكل تسبيحة صدقة ، وكُل تكبيرة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وكل تهليلة صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهى عن منكر صدقة ، وفى بضع أحدكم صدقة** » قالوا : يا رسول اللّه ، أيأتى أحدُنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ قال : « **أرأيتم لو وضعها فى حرام أكان عليه وزر ؛ فكذلك إذا وضعها فى الحلال كان له أجْر** » رواه مسلم .

تخريج الحديث :

هذا الحديث خرجه مسلم من رواية يحيى بن معمر عن أبى الأسود الديلمى عن أبى ذرّ رضى اللّه عنه ، وقد روى معناه عن أبى ذرّ من وجوه كثيرة بزيادة ونقصان .

وروى نحو هذا الحديث من رواية جماعة من الصحابة منهم على ، وأبو ذرّ ، وأبو الدرداء ، وابن عمر وغيرهم .

سبب ورود الحديث :

هذا الحديث جاء جوابا شافيا لتساؤلات المهاجرين الفقراء حيث تركوا ما يمكنهم التصدّق به وراءهم فى مكة .

فحزّ فى نفوسهم ألا يملكوا ما يتصدقون به ولم يجدوا ما يتسابقون به مع الأغنياء، فجاءهم الجواب النبوى مطمئنا، ففى الصحيحين عن أبى صالح عن أبى هريرة رضى اللّه عنه، أن فقراء المهاجرين أتوا النبىّ ﷺ فقالوا: ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى

أناسا من أصحاب رسول اللّه . وهم فقراء المهاجرين .
أهل الدثور . جمع : دثْر ــ بفتح الدال وسكون الثاء ــ أى المال الكثير .
بالأجور . جمع : أجر وهو ما يعود على الإنسان فى مقابلة عمله .
بفضول أموالهم . أى الزائدة عن حاجاتهم .
بضع : يطلق على الفرج وعلى الوطء .
أرأيتم : أى أخبرونى .

والنّعيم المقيم ، فقال : « وما ذاك ؟ » فقالوا : يصلون كما نصلّى ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون ولا نتصدّق ، ويعتقون ولا نعتق ، فقال رسول اللّه ﷺ : «أفلا أعلمكم شيئا تدركون به من قد سبقكم ، وتسبقون به من بعدكم ، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم ؟ » قالوا : بلى يا رسول اللّه ، قال : «تسبّحون وتكبرون وتحمدون دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين مرة » ، قال أبو صالح: فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول اللّه ﷺ فقالوا : سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله ، فقال رسول اللّه ﷺ : « ذلك فضل اللّه يؤتيه من يشاء ».

دروس وعبر من كلام سيد البشر

الأصولية :

من حكمة المشرّع الحكيم أن جعل فى الإسلام أصولا وثوابت لا تقبل من أىّ كان الخوض فيها والاجتهاد فى حقيقتها كى لا تزعزعها الآراء وتوهنها الظنون ، ولكنه لم يبطل فى تشريعاته مفعول العقل بل فتح له مجالا خصبا ليدلى بدلوه فيه كالفروع ، ولما كان القياس ضابطا شرْعيّا للعقل أرشد الرسول الكريم إليه فى هذا الحديث ، بل إلى نوع من أنواعه فاتحا بذلك باب الاجتهاد فى فقه الأحكام و مفهوم ما ورد فى الحديث : إذا كان العدول عن الحرام إلى الحلال يحصل الأجر ، إن الوقوع فى الحرام يوجب الوزر ، وعليه فمن وضع نطفته فى الحلال كان له بها أجْر ؛ لأنه إن وضعها فى الحرام عوقب عليها .

النفسية :

١ ــ نظرة فقراء المهاجرين إلى الأغنياء لم تكن نظرة حسد وحقد ؛ بل هى نظرة اغتباط فحسب ؛ لأن الذى يثير حقد الفقراء على الأغنياء هو اعتداد هؤلاء بأنفسهم وطغيانهم بأموالهم ، وتجبّرهم بما لديهم ، ولكن الإسلام عالج تلك المشكلة من جذورها وبأساليب ناجحة متعدّدة ، ثم إن التنافس فى الطاعات أمر محبّب ، قال تعالى: ﴿ **وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ** ﴾ [المطففين : ٢٦] ، وقال : ﴿ **لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ** ﴾ [الصفات : ٦١] .

٢ ــ إن فى اعتبار الحمد والتهليل والتسبيح صدقة عزاء للفقراء الذين لا يملكون ما يتصدقون به شأن إخوانهم ، ممّا يحزّ فى نفوسهم ، وربما يكسر خواطرهم ، وهذا القرآن الكريم يراعى تلك الحالة ، حيث رفع الحرج عمن وصفهم بقوله : ﴿ **لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا**

أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴾ [التوبة: ٩١، ٩٢].

٣ ــ ليس فى الصدقة ما يجرح شعور الفقير ــ فى حقيقة الأمر ــ أو يُحسّه بالذل والصغار ؛ لأن المتصدّق ــ وأعنى المتزكّى بالذات ــ ليس متفضّلا من ذاتيته حتى يتطاول بما أعطى .

ثم إن مفهوم المال فى الإسلام وحقيقته يبينان بوضوح أن الملكية فى الدنيا لا تزيد عن كونها ملكية استخلاف فحسب ، وهذه تعنى أن المالك الحقيقى ليس هو ربّ المال كما يتراءى صوريًا بل هو الله ، وتعنى أيضا أن التمليك هنا موقوت ، قال تعالى : ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ [الحديد : ٧] ، ﴿ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾ [النور : ٣٣] ، ومع أن المال مال الله ، فقد تكفّل سبحانه بتزكية المال المزكى ، ومضاعفته وتنميته ، قال تعالى : ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ [سبأ : ٣٩]، وقال أيضا : ﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾ [الروم : ٣٩] .

إذًا فليس من حق الغنى أبدا أن يتذرّع بالفقر والخوف من الفاقة إن تصدّق ، ولا أن يتبرّم من وجود إخوانه العوزين من حوله ، أو يعرض بهم ويمنّ عليهم ؛ لأنه بفعلته تلك يخدش كرامتهم ويكلم شعورهم ، وهنا يحذر القرآن : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى ﴾ [البقرة : ٢٦٤] ، ويبشر آخرين : ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة ٢٦٢] .

الاجتماعية :

١ ــ يقوم المجتمع الإسلامى على التكافل التام بين أفراده ، فلا يحس الضعيف بضعفه ولا القوىّ بقوته ؛ لأنهما متكاملان ، كما لا يحسّ المعدم بفاقته ، ولا ذى الطول بغناه؛ لأنهما كقطبى الدائرة الكهربائية يكمّل أحدهما الآخر ، وهكذا دواليك .

ومن هذه القنوات الإسلامية التى تكرّس التكفّل المادى الصدقة التى ضمن بها الإسلام الحياة الكريمة للمحتاج، عن المصطفى ﷺ قال: «من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له»(١).

ولربط الجانب الدينى والعقدى بالوازع الإنسانى الذى تقتضيه الفطرة السليمة،

(١) أخرجه مسلم .

أورد بعض ما حكاه التاريخ الإنسانى عن نظرية الصدقة وفلسفتها ؛ لأن المتتبع لما ورد فى هذا الجانب ؛ يدرك بيسر بالغ توافق الفطرة الإنسانية مع الأوامر الإلهية ، كما يدرك أيضا التناسق التام بينهما ، إذ كانت الصدقة فى القرون الوسطى تمثل حيزاً كبيراً من المثل الاجتماعية العليا ، وكانت الصدقة عندهم تعنى التكملة الأساسية لنظرياتهم فى الملكية الخاصّة .

وعن فلسفة الصدقة يقول : (سان توماس) مقرّرا هذا المبدأ الإنسانى العام : (. . .والوظيفة الأخرى للإنسان بالنسبة للأشياء الخارجية هى استعمالها ، وبالنسبة لهذا ينبغى للإنسان أن يحوز الأشياء الخارجية لا على أنها له خاصّة ولكن على أنّها للجميع ليمكنه أن يقدّم منها عن طيب نفس للغير فى وقت الحاجة) .

ويقول (سان لوك) : (ما هو زائد عنك أعط فى الصدقة) ، ويقول (سان جيروم) : (إذا كان عندك أكثر من الضرورى لطعامك وثيابك فتصدق به ، واعلم أنك فى هذا إنّما تدفع دينا) . فهذه النماذج الفلسفية تبين تكامل الصدقة والزكاة وتوافقهما مع فطرة الإنسان التى ترى فى بذل الصدقة تحقيقا لمبدأ التكافل الذى يمليه على أفراد المجتمع الحسى بالانتماء للمجتمع المعنى .

٢ ــ ليس فى الإسلام طبقية ، إنما للمرء فرص العلا عند الله غير بذل المال ، ولو سدت تلك الفرص لاستحال الإسلام إلى دين الأغنياء فقط ، ولكن فى حالة ما إذا تسابق الأغنياء إلى تلك الفرص فاهتبلوها قبل الفقراء ، فإن الإسلام يراعى درجاتهم ويعتبرها ؛ لأن المال بلاء ومعاناة وجهد كالفقر وربما كان أشد .

الاقتصادية :

١ ــ لقد حرص الإسلام على تفتيت الثروات المكدّسة ، كما عمل على تحريكها وسيولتها وحارب تجميدها ؛ وذلك لئلا تصبح تلك الثروات حكرة على طائفة معيّنة فى المجتمع تتداولها فيما بينها وتتقلب فى بحبوحتها دون سائر أفراد المجتمع ، قال تعالى : ﴿ **كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُم** ﴾[الحشر : ٧] .

ومن بين أساليب التفتيت والتحويل التى اتبعها النظام الاقتصادى الإسلامى التوارث، وفريضة الزكاة ، والندب إلى الصدقات المختلفة .

٢ ــ ثم إن النظام الاقتصادى الإسلامى نظام تربوى تهذيبى ، ولعل هذا ممّا يميزه عن النظم الاقتصادية البشرية حيث يربّى فى المسلم روح البذل والعطاء دوما ، ويطهّر نفسية المسلم من أمراض خطيرة كالطمع والبخل ، والقسوة على الفقراء ، وما إلى ذلك

من الرذائل الخطيرة ، قال تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة: ١٠٣] .

٣ ــ فرض الزكاة على أغنياء المجتمع الإسلامى له أبعاد كثيرة منها تحقيق قاعدة اجتماعية وسنة إلهية وهى : وجود الأغنياء فى صفوف المسلمين ، وليس هذا بعيب فى حق الإسلام حتى يخجل من إقراره بعض المتحمسين للإسلام العاطفيّين الذين لا يملكون الصورة الواضحة التى تمكّنهم من إدراك الثوابت والفوارق .

قلت : بل هو من حسنات الإسلام ، ومما يحسب له لا عليه ؛ لأنه فتح أبواب الجد والاجتهاد فى الحياة الدنيا ، واعتبر العامل الكادّ فى عمله مطيعا له ، ويكفى قول الحق سبحانه : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾ [الجمعة: ١٠] دليلا على الموازنة الدقيقة بين الدنيا والآخرة .

ولكنه فى ذات الوقت حارب استبداد الأغنياء أو استئثار طائفة محدودة بالأموال دون غيرها ،والمتتبّع للنّظام الاقتصادى الإسلامى يرى بوضوح كيف عالج الإسلام مشكلة الفقر .

فإذا كانت الاشتراكية الماركسية ترى حل هذه المشكلة بإنزال الأغنياء إلى دركة الفقراء ، وبالتالى يصبح الأغنياء هم الذين يشاركون الفقراء فى بؤسهم وشقائهم وتعاستهم؛فإن نظامنا الإسلامى عمل على رفع الفقراء إلى مصاف الأغنياء ، ولست هنا مدّعيا لأنّنا لا نعانى عقدا نفسية أو اجتماعية مثلما يعانى غيرنا ، ولكن دونكم التاريخ الإسلامى فاستقرئوه :

أ ــ طيلة أربعمائة سنة (أربعة قرون) من عمر صدر الإسلام لم ينفذ حكم السرقة إلا فى حالات تعد على رؤوس الأصابع .

ب ــ وطيلة ذلك العهد يسير عمال الزكاة مشرقين ومغرّبين باحثين عمن هو أهل للزكاة فلا يجدون ! !

أيها الشيوعيّون : إنكم إن حققتم المساواة ـ على حد زعمكم ــ فى المال ظاهريا والجنس ، والحكم ، فماذا أنتم فاعلون فى المواهب ، والذكاء والإدراك ، وفى الصحة والأعمار هل بمقدوركم ذلك ؟!

إذن فستسوّون بين عمر الوالد والولد ! . . . وستولجون الجمل عبر سم الخياط! . . . وستحلبون الألبان من النيران !

فقه الدعوة

١ ـ ينبغى للداعية ألا يضيق صدره ولا يتحرج من أسئلة المدعوين واستفساراتهم، بل وفى بعض المواقف مراجعاتهم ، وعليه إقناعهم بالعقل والنقل ، ولا يتفلّت من بعضها ؛ لأن الإسلام حقائق واضحة لا تهزّها الظنون ولا يزعزها النقاش والحوار، قال تعالى لنبيّه ﷺ: ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾[آل عمران: ١٥٩].

٢ ـ لا شك أن الأدلة الشرعية دليل قاطع للمؤمنين بها ، ولنضرب لذلك مثلا : لو كنت فى نقاش مع ملحد جاحد للخالق ـ عز وجل ـ هل تذهب فى تدليلك على وجوده بالآيات القرآنية أو الآراء الكلامية أبدا لا هذا ولا ذاك .

بل عليك أن تنبرى له فتقرعه بالآيات الكونية قبل كل شىء ، حتى ترسى قاعدة يتفق معك فيها ، وتنطلقان معا على ضوئها .

وهذا هو المنهج القرآنى فى الدعوة ، واستعرض إن شئت جانبا من القرآن المكى وكذلك الشأن إن ناقشت عالما مّا لا يكفى أن تقف عند النصوص الفقهية ، والآراء المذهبية ؛ لأن ذلك فيه إجحاف لعقلية الرجل وخلفيته .

تطبيق

لما تنكّب الأغنياء سبل ربّهم ، وجحفوا حقوق الفقراء والمحتاجين ، واستأثروا بما لديهم، واتخذوا كنوزهم مطية للمقاعد والمناصب، وأداروا بدنانيرهم دفّة الحكم بالرّشاوى أو الهدايا كما يسمونها .

واستصدروا الأحكام وفق أهوائهم ومناصبهم ومصالحهم ، حقد عليهم الفقراء وتمكّنت فى نفوسهم ـ كردّ فعل ـ روح الانتقام ، ومن ثمّ تعدّدت الجرائم ، وأضحى الفقير يتربّص الدوائر بأموال الغنىّ ، ويسعى إلى الاستحواذ عليها بسبل ملتوية وحيل جنونية ، أما إذا أقعده إدراكه أو أى وازع آخر عن ذلك ؛ فإنه الحاسد الحاقد فى كثير من الأحيان .

وإننا لنرى اليوم أموالا تهدر أو تحرق وتتلف لا لشىء إلا لذاك .